المبحث الرابع

أنواع الغرائز

١) غريزة حبّ النفس

ألا كلُّنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صَبّا
فحبُّ الجبان النفس أورده التقى وحُبُّ الشجاع النفس أورده الحربا

غريزة حبّ النفس هى العماد الكبير والوازع العظيم الذى يدفع الكائنات الحيّة إلى تحصيل أقواتها ، والدفاع عن سلامتها ؛ فالنبات تسيخ جذوره وتتشعّب فى باطن الأرض سعياً وراء الغذاء ، ومن أجله يعدو بعضه على بعض تسلقاً واستنادًا وامتصاصا . والحيوان طلباً للغذاء يبطش قويّه بضعيفه ، ووحشيُّه بأليفه . ومع أنّ الإنسان قد ساد أنواع الحيوان لايستطيع أن يحصى ما يهاجمه فى كلّ لحظة ، فهو ما عاش مهدّد بالهوامّ تتسابق لامتصاص دمه ، وحقنه بنفثات سمومها ، ومهدّد بجيوش الجراثيم تناوشه أينما ذهب متغذيا كان أو متنفّسا ، وتترقّب فيه الضعف فتنقضُّ عليه وتميته .

لو أنّ الناس تحابُّوا لتعاونوا على مناجزة الأعداء ، بهمّة قعساء ، لكنّهم اختلفوا فى المشارب والأهواء ، وسلّوا على أنفسهم سيف القضاء ، واستعجلوا الفناء « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ »

وكلما زادوا حضارة وعلما ، زاد التنازع بينهم فتكًا ونقضًا وهدما .

تجد الطفل القاصر يعبث بملك غيره ، ويتمنّى أن يكون كلُّ شيء ملكًا له ، لأنَّ مدى شهوته للطعام والشراب بعيد . اصبر على هذا الطفل حتى ينمو عقله ، وتنفذ إرادته فى صلب الحقائق تجده لايحقق محبّة نفسه إلّا إذا وصلها بمحبّة غيره نوعًا ما ، فإذا واسى مكروبًا أو أعان بائسًا أو أطعم مسكينًا فكأنّه يجرُّ النفع إلى نفسه ، لأنّهم لا ينفكُّون يذكرون رحمته بهم فيردُّون له جميلاً مثله ، أو ينطقون بشكره إذا أعجزتهم القدرة .

هـذا وإنَّ ترقُّب المجازاة من أجلّ الدوافع لإسداء المعروف واجتناب المنكر . وقد حبّب الله تعالى إلى نفوس الأتقياء محبّة العمل الصالح وبغضهم فى الشرّ ، رغبة فى نيل ثوابه واتّقاء عقوبته . ولا تجد حبَّ الخير لمجرّد أنّه خير إلّا عند من وصفهم الله تعالى بقوله « وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » وعند من منحهم الله قوّة الإيمان كصُهَيْب الذى قال فيه عمر بن الخطاب « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصِه » فقد أثنى عليه لأنّه يطيع الله تعالى تقديرًا لجلائل نعمه لا خشية من عقابه

يحبّ الإنسان أبناءه لأنه يتوقّع منهم المساعدة إذا قدروا على الكسب ، وأضناه الكبر ، وهذا الحُبُّ ظاهر فى الإناث مطلقًا نحو صغارها حفظًا للنوع ، وترى هذا الحبّ يأخذ فى النقص كلّما كبروا ،

واستطاعوا السعي واعتمدوا على النفس . وما تسامح المرأة لأبنائها إذا أذنبوا إلّا وازع هذا الحبّ الغريزيّ . جاء في أمثال الميدانيّ : أنّ رجلاً تزوّج امرأة وله أُمٌّ عجوز ، فقالت المرأة للزوج لا أنا ولا أنت حتّى تخرج هذه العجوز عنّا . فلمّا أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلاً ، حتّى أتى وادياً كثير السباع فرمى بها فيه ، ثمّ تنكّر لها فمرّ بها وهي تبكي فقال : « ما يبكيك يا عجوز » ؟ قالت : « طرحني ابني هاهنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد » . فقال لها : « تبكين له وقد فعل بك ما فعل ، هلاّ تدعين عليه » ؟ قالت وأرسلته مثلا : « تَأْبَى له ذلك بناتُ أَلْبُبِي (١) » .

فاذا علمت أنّ حبّ الوالدة لولدها طبيعيٌّ ، فلا إخالك تنكر أنّ حبّ الولد لوالدته أو لوالده وليد المعروف وثمرة العطف والحنان ، فالولد يحبّ والديه متى أحسّ عطفهما عليه ، ومتى عاقباه انقلب حبّه كرها ، لأنّ الغرض الشريف من العقوبة التي يوقعانها به يدقّ فهمه على ذهنه ، فيتبادر لعقله القاصر أنّهما يسيئان إليه

ويحبُّ الإنسان إخوانه مدفوعاً بعامل المبادلة في المنافع ، وهذا الحُبُّ موقت يبقى ما بقيت المصلحة . قيل إنّ رجلا جمع أبناءه الثلاثة وأعطى أحدهم خبزا ، والثاني أُدْما ، والثالث فاكهة ، ورخّص لهم في الفسحة معا ، فتطلّع كلّ منهم إلى ما بيد أخويه ، واتّفقوا على أن يقسم كلٌّ منهم نصيبه أثلاثا ، يبقى الثلث لنفسه ، ويبادل أخويه في الثلثين

(١) بنات الألبب عروق في القلب تكون منها الرقة

الآخرين ، فتمّ لكلّ واحد منهم أنصبة متعادلة من الخبز والأُدم والفاكهة ، ولولا هذا النفع المتبادل ما اتّفقوا .

العزلة والاجتماع

يشترك الإنسان والحيوان فى أنّ العزلة مضادّة لطبعهما ، وأنّ الاجتماع فيه تساند وتآزر ، فالنحل حيوان اجتماعىّ لا يستطيع صنع العسل إلّا بمساعدة رفقائه ، والنمل لا يدّخر قوته إلّا بمشاركة أفراده ، والخُطّاف لا يهاجر من أوطانه إلّا أسرابا ، والدواجن تعيش هنيئة إذا اجتمعت ، ويُرى عليها البؤس إذا افترقت . والبقرة المعزولة لا تدرُّ اللبن ولا تسمن مثل البقرة وسط الصُوار[1] .

الأثرة والإيثار

الفضيلة وسط بين طرفى الأثَرَة والإيثار ، وقد ورد « حبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك » . نعم نحطّ عن الفضيلة نفس من يبذّر فى ماله ولو فى سبيل الجود ، ونفس من يلهو عن غيره بمصالح نفسه ، ومَن يلعب الغرور بعقله فيرى نفسه جديرة بالمديح وهى مجرّدة من وسائله ، ومَن يصادر إخوانه فى حقوقهم ويقف منهم موقفاً ممقوتا ، فيحقد على من ساوَوْه ، وينكر فضل من فاقوه ، ويستخفُّ بمن نقصوا عنه .

المواساة الحقيقية

وليس من المحبّة المنشودة أن يجامل الإنسان أخاه بعبارات السرور عند سبوغ النعمة ، وأن يُسْلِيَه بالكلام عند نزول الكارثة . وإنّما المحبّة الحقيقيّة أن يتوجّه بالفعل إلى جرّ النفع ودرء الضرّ متّخذا

(١) القطيع

من المال والجاه عضداً قويّا . ولا يكون إشفاقه على البائسين صادقاً إلّا إذا جرّب لَوْعة الجوع والعُرْى والحاجة ، ولذلك شرعت زكاة الفطر بعد صوم شهر رمضان لتكون النفس قد عرفت وطأة الجوع والعطش فتسعى فى تخفيفها .

أراد معلّم أن ينفخ فى رُوع تلاميذه محبّة الإحسان إلى البائسين ، فأخّر عنهم الغداء قليلاً حتّى هاجهم ألم الجوع ، ثمّ أقبل عليهم وقصّ حديث من نكبتهم الأيّام فطردوا من ديارهم أو أُوذوا فى نفوسهم وأموالهم ، فجادوا بالنزر اليسير ، والكريم من جاد بما عنده . ولا يخفى أنّ تعويد الناشئ مدّ يد المساعدة للمحتاجين مقلّل من شوكة الأَثَرَة ، ولا سيّما إذا وجد من إخوانه إقبالاً على فعل الجميل ، فليشترك التلاميذ فى جمع إعانات ينفقونها فى تعليم من تتوافر فيهم المواهب الذهنيّة من الفقراء ، أو يتعاونوا جميعاً على تفهيم المسائل كما كان يفعل بستالوتزى إذ كان يُجْلِس التلميذ الذكىّ بين التلميذين الضعيفين ليرشدهما . ناهيك بما تحدثه زيارة ملاجئ العجزة ومستشفيات المرضى فإنّها داعية إلى محبّة المعروف ، مرشدة إلى أنّ الإنسان عرضة لتقلبات الزمان ، وما أحوج هؤلاء المرضى إلى كلمة تسلية يسمعونها من زائر تخفّف عنهم لوعة الوحشة والأحزان ، أو إلى هديّة تريح نفوسهم ، وتدفع بهم إلى التفكير فى وسائل الشفاء !

وللأندية والمعارض وجمعيّات التعاون والنقابات والمجلّات والصحف وممارسة المناقشات الموصّلة إلى الحقائق شأن كبير فى تأليف

النفوس بعضها ببعض على قواعد الإخاء المتين والحبّ المتبادل . وقد قرّر علماء الاقتصاد أنّ الشخصين المجتمعين يشتغلان فى يوم واحد ما لا يستطيع الفرد أن يعمله فى يومين . فالفرق بين العملين هو فضل الاجتماع وثمرة التعاون .

إنّ المجتمعات وحدها وسيلة متينة لتوثيق عرا الوداد ، وتمكين أسباب الإخاء والودّ بين أعضائها . فقد يكون العضو محبًّا لقوم يشاركهم فى مجتمع خاصّ ، ومحبًّا لآخرين يشاركهم فى مجتمع آخر . بل قد يكون للفرد الواحد اشتراك مع غيره فى مجتمعات عدّة ، فيتضاعف حبّه لهم بمقدار ذلك .

٢) غريزة الخوف

هى مشتركة بين الحيوان والإنسان ، ويخفّف وطأتها على الإنسان ما يتوخّاه من طَرْق أبواب الحيل . ولا يدرك معنى الخوف على حقيقته ، من امتدّ به رواق المدنيّة ، وَوَرَف ظلُّ الأمن . وغالباً يعتمد فى تصويره على ما يرسمه الخيال ، أو ما يجود به الكاتبون من وصف المحن التى تفتك بالإنسانيّة فى الحروب والزلازل والمناجم ، وبين ألسنة اللهب ولجج البحار . ومع أنّ هذه الأخيلة مؤثّرة لا يرسخ أثرها فى الحافظة رسوخه إذا أصيب الإنسان بشىء منها وأنجاه طول العمر . أرادت كاتبة أن تكتب فى وصف الخوف الذى يحسّه السارق ، فمَنّ لها أن تدخل دُكّانا ، وتتظاهر بالسرقة فتقدّمت إلى البائع وأغلظت له فى القول ، وضايقته فى المعاملة ، وأعرضت عن الشراء ؛ وبينما هى فى الطريق إلى الباب ، تناولت من الأرض هَنَة ، وما كادت تخرج حتّى أدركها الحارس وضبط ما معها ، وأوسعها شتماً وإبلاما ، وسلّمها إلى شرطىّ رافقها إلى المحكمة للفصل فى أمرها . فلمّا مَثَلت بين يدى القاضى أدهشه حسن زيّها ، وجمال رُواثها ، مع تفاهة الشىء المسروق ، فسألها عن التهمة فاعترفت بها ، ثمّ استفسرها الأسباب ، فأجابت بأنّها ما فعلت ذلك حُبًّا فى السرقة ، بل حبًّا فى درس الوجدان الذى يلازم هذا الموقف . فلم يَسَعِ القاضىَ إلّا أن أنفذ عليها جزاء الحبس على اعترافها بالسرقة ، ثمّ قصد الإمبراطور فقصّ عليه أمرها ، والتمس منه العفو عنها .

يتردّد على النفس شىء واحد فيكون أحياناً مصدر سرور ،

وأحيانًا مصدر خوف . فالطفل يرى الكلب اليوم فيقترب منه ويلاطفه ، ويراه فى غد فينأى عنه ويتهيَّبه . وإذا تساءلنا عن سبب هذا الاضطراب علمنا أنّه رأى الكلب لأوّل عهده مسالمًا فمال إليه، وعند ما أقبل الليل وآن أوان نومه ، وألهاه اللعب عنه ولم يمتثل أمر أمّه ، أمرت الخادم أن تصوّت محاكية نباح الكلب، وأظهر الحاضرون الفزع من سماعه ، فذهب مسرعًا إلى فراشه وانكمش فى مضجعه ونام . ولمّا استيقظ صباحًا ، ورأى الكلب عينه ، وسمع نباحه على تلك الصورة التى سمعها ليلا فلا نعجب إذا رأيناه يخافه ، إذ الخوف الذى كان كمينًا عنده قد أثارته التربية السيّئة .

بمثل هذا نعلّل الفرق بين الحَمام الذى يأوى إلى الكعبة ويرفرف عليها مستريحًا مطمئنًا ، والحمامِ الذى يسكن الجهات الأخرى . فحمام الكعبة استأنس لأنّ غريزة الخوف عنده كامنة لم يثرها ثائر ، فلم يهاجمه أحد ولم يؤذه صيّاد ، عادة ألفها من الإنسان وقد وصّاه الله بهذه المعاملة . أمّا الحمام الآخر فيسمع غالبًا دَوِىَّ البارود المفزع ، ويشاهد شبح الإنسان مقرونًا به ، فتتنبّه عنده غريزة الخوف بمجرّد رؤية الإنسان ، ويفطُن إلى أنّه يريد الاعتداء عليه فيخافه . أمّا ذراريه فربّما لا تشاهد مثل هذا الاعتداء ، ولكنّها تحاكى أصولها فى هربها من الإنسان فتخشاه تَبَعًا .

obeikandl.com

وكذلك يفعل الخوف في العقل ، فيتكدّر صفاء الحافظة، ويغلب النسيان، وتتعطّل الإرادة الصالحة ، إذ لا تجد فكراً يَقظا ، ولا عضواً مطيعا ، ويستسلم الذهن للخيال المروّع ، حتّى إذا رأى غير شخص ظنّه رجلا ، وتستولى عليه الوساوس ، ويزلّ عن مواقف الصواب .

وكثير الخوف يعتدى على المزاج ويجرّه إلى الهلاك ، كما يحصل للمجرمين الذين ينفذ عليهم حكم الإعدام . يقفون بين يدى الجلّاد والسيّاف ، وإذا قدّم أحدهم للقتل مات الذى يليه من شدّة الفزع والجزع

مثيرات الخوف

ما يحدثه الصوت لشديد من الروعة

تثور النفس بفطرتها عند سماع الأصوات الشديدة التى تصل إليها من غير انتظار ولا استعداد ولا تعرف لها أسباباً ظاهرة . أصيب محمد على باشا الكبير بصيحة مزعجة من جرّاء إعدام المماليك فى قلعة مصر ، كانت تنتابه أحياناً فيسمع منه زئير كزئير الأسد يتقطّع من سماعه نياط القلب . جلس رسّام إلى جانبه ليرسمه ، ولمّا سمع هذه الصيحة هَلِع فؤاده ، ومات من شدّة الفزع

وكثيرًا ما نرى المتفزّزين تعروهم رِعْدة الخوف لأقلّ صوت أو حركة . وهم الذين قالت فيهم عائشة أمّ المؤمنين : « إنّ لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير ، كلّما خفقت الريح خفقت معها . فأفّ للجبناء »

فى سنة ١٩٠٦ كنت جالساً مع المعلّمين فى كلّية غردون

بالخرطوم ، وبينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث ، إذا صوت هائل هزّ أركان المدرسة وصدَع بنيانها ، ثمّ شَخَصَتْ أعيننا إلى السماء فإذا هى اغبرّت ، وكساها الدخان المتراكم ثوباً كثيفا ، فسكتنا ذاهلين ، وأقبل بعضنا على بعض يتساءل عن هذه الحادثة ، وما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ثمّ تفقّدنا الطلبة فرأيناهم خارجين من الحجرات بقضّهم وقضيضهم مذعورين يلتمسون النجاة من شرّ هذا الهول العظيم . ولمّا اطمأنّت النفوس ، وهدأت العقول ، وحُقّقت الحادثة ، علمنا أنّها نشأت من انفجار ١٥٠ طنّا من البارود ، وما ظنُّك بصوت امتدّ صداه على بُعد ٣٠ ميلاً من مكان الحادثة التى كانت لشدّتها

تُصِمُّ السميع وتُعْمِي البصير ويُسْأَل من مثلها العافية

رؤية المشاهد الغريبة

ومن مثيرات الخوف رؤية المشاهد الغريبة العجيبة المضطربة ، كرؤية لصّ مسلّح فى هيجانه ، وكجماح حصان انقلبت سَحَنته ونصب أذنيه وفتح مَنْخِرَيْه . رأيت فى أسفارى طفلاً يترنّح من البشاشة والسرور ، وقفته أُمُّه ليطلّ من نافذة القطار ، ولمّا تحرّك اضطرب مزاجه فعبس وبكى بكاء مرّا ، ولمّا أدارت وجهه عن رؤية المناظر المضطربة المتجدّدة سكن جأشه . وكذلك شاهدت طفلاً يلعب الخوف بعقله ، فَعَبَّسَتْ ملامحُ وجهه ، لأنّ حامله اقترب من البحر فكدّرت أمواجُه المتلاطمة صفاءَ سروره .

المباغتة

ومنها المُباغتَة كما إذا حادثنا متكلّم على غير انتظار ، أو نبح

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

ضعف الصحة

وقد يكون الخوف من ضعف الصحّة ، ولا يغيب عنك مايحدثه عند الممعود من الجبن وخَوَر العزيمة ، وما يتردّد على ذهن المحموم من المفزعات فيخيّل إليه مزاجه المضطرب صُوَرًا من الوحوش الضارية تتأثّره ، أوصخوراً من السماء تتحدر عليه، وتراه للتملّص منها فى قلق وحيرة.

تأثير الوهم

يقيس الإنسان عَرْضَ الطريق الذى يسير عليه فلا يجده يزيد على نصف متر ، ولكنّه إذا سار على المشارف العالية أو على ممرّ فى البحر ، يلعب به الوهم ويسوقه إلى موارد الخوف رغم إرادته ، فتجده يحتاج إلى ما يستند إليه ، وإلّا فإنّه لا يتمالك الوقوف . ومن ذلك أنّ شخصاً حكم عليه بالإعدام ، فشُدَّت على وجهه عِصابة ، وأُعْلِمَ أنّه سَيُفْصَدُ تنفيذاً لهذا الحكم ، وبدلاً من الفصد سلّط الفاصد عليه رشاشاً من الماء الفاتر ، فظنّه دماً يقطر منه وغُشِيَ عليه فمات من تأثير الوهم . وبين ظهرانينا أناس بذّروا فى شهواتهم ، وقضوا القضاء العاجل على سعادتهم بانغماسهم فى الترف والنعيم ، فيحسّون طبعاً بتأفّف ، وحينئذ يوسوس لهم الخيال فيحملهم على اعتقاد أنّ فيهم داء ، فيفزعون إلى الطبيب ليفحص عن مرضهم فيسترِيب ، وربّما اختلق لهم علّة وخوّفهم بطشها فيعيشون من هذا الوهم المضاعف فى ذلّ دائم وقلق مستمرّ . ولو حسبت من يموت فى زمن الوباء وجدت أكثرهم يلقى حتفه من تأثير الوهم ، والوهم من ألدّ أعداء الإنسان

قراءة القصص

ومن محدثات الخيال المزعج قراءة القصص ، وهى أشدّ الأمور استرقاقاً لذهن الناشئ . وما ظنّك بمن يجلس بين يدى أمّه أو عجائز

البيوت ولا يسمع إلّا نوادر العفاريت والجانّ ، وما يفعلونه من ضروب الأذى والحرمان ، بُلينا بهنّ فى العهد الأوّل من طفولتنا ، واعتقدنا صدق رواياتهنّ لصغر عقولنا . وإنّ من يوطّن نفسه على اعتقاد أنّها من التخرُّصات والأكاذيب ، ثمّ ينطلق رابط الجأش إلى اختبار مصادرها ، لا يجدها إلّا كضباب أرسلت إليه الشمس أشعّتها فبدّدته . وقد كفانا المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده[1] مئونة البحث عن حقيقة هذه الأوهام إذ أسمعنا : أنّ فى مصر دربًا يدعى حيضان المسلى بين الأزهر والدرب الأحمر ، اشتهر بالمخاوف ، وذهبت فيه أحاديث الناس مذاهب شتّى ، لضيقه وظلامه وإهمال وسائل الأمن فيه ، حدّثنا أنّه عقد رهانًا مع طائفة من إخوانه لاختراق هذا الدرب ليلا ، وما بدأ بالسُرى حتّى غشيه الوهم ، وبدت عليه أمارات الخوف ، وكان كلّما صوّر له الخيال شبحًا مفزعًا تجلّد وأيقظ فكره وأحيا عزيمته ، وسلّ سيف إرادته ، واندفع إلى حجب الوساوس فمزّقها ، ومرّ فى سبيله كالسهم من الرميّة . وبينما كان سائرًا سمع غطيط نائم فعقّب الصوت واسترشد به إلى مصدره ، وإذا هو غلام كان يلعب مع إخوانه الصبيان وغلبه النوم فأيقظه ، وتقدّم به الأستاذ إلى

---

(١) الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية توفى سنة ١٩٠٥ نبغ فى العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية . وخدم العلم والإصلاح وأثمرت طرقه فى الطلاب . أجله العالم الاسلامى لأنه تصدى للدفاع عن الدين وكان له من كتابته وخطابته وذلاقة لسانه وبليغ بيانه تأثير نادر المثال

من حضر فى الطرف الآخر من الدرب ، وقصّ عليهم من أمره علما ، وصوّب لتلك الإشاعة من همّته سهما ، وأثبت لهم من التجارب عزماً وحزما ، واقتلع من نفوسهم ضلالة ووهما .

وما الخوف إلّا ما تخوّفه الفتى وما الأمن إلّا ما رآه الفتى أمنا

منافع الخوف

الخوف المعتدل من أكبر عوامل الإصلاح ، والعاقل يجعله كالنار يتدفّأ بها ولا يلمسها ، وهو الذى يحمل النفس على التريُّث والأناة ، ويثير المواهب الفكريّة لتمحيص الأمور ، وقد ورد «من خاف سلم» . فإذا دبَّ دبيب الخوف فى إنسان على أثر رؤية حيوان ضار ، ففرَّ من موقفه إلى مواطن السلامة ، ضنًّا بحياته أن يعبث بها الشرُّ ، أو إذا دهمته النار فى منزله فثبت أمامها رابط الجأش يفكّر فى وسائل النجاة ، ودفع غائلة الحريق ، حُمِدَتْ مَغَبَّةُ هذا الخوف الذى نبَّه القوى الفكريّة على خطر الموقف والاستعداد له ، ودرء مخاوفه بما يستطيع من الإقدام والنشاط .

وخوف الله تعالى رأس الحكمة ، لأنّه يضبط النفس الجامحة ويكفُّها عن مباشرة الاعتداء ، فى غيبة الرقباء ، وكفى بالله رقيبا . وماذا عسى أن يكون خطر الملحدين على المجتمع الإنسانىّ وقلوبهم مجرّدة من هذا الوازع ، ولهذا غلا فولتير فى قوله : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه »

فى الخوف قوّة روحانيّة تكفل تحرّىَ الإصابة والسلوكَ بالإنسان فى مسالك البحث والتنقيب ، لتخيُّر الأسباب الراجحة التى ترشده إلى السعادة ، على أنّه قد يبذل ما لا قِبَل له به من وسائلها ، ثمّ تُفلت منه الغاية المنشودة ، ويضلّ حيث يريد الفوز . ذلك لأنّ الأسباب المعقولة التى جال فكره فى اختيارها ، ربّما لا تكون أسبابًا حقيقيّة فى الواقع . فقائد الجيش يرسم خطّة الهجوم التى يتوسّم فيها النجاح فى ساحة الحرب ، ولكنّ عدوّه ربّما حسبها من قبل — على سبيل توارد الخواطر — وأعدّ لها العدّة ، فيتبدّل الأمر ، وتسوء العقبى

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأوّل ما يجنى عليه اجتهاده

لذلك جاءت مشروعيّة الاتّكال على الله بعد إجادة الأسباب . وهذا الاتّكال برهان على عجز الإنسان وقصر عقله فى الإحاطة بالحقيقة . وقد أجاد أبو تمّام فى قوله :

وقد يُكْهِم السيف المسمّى منيّة وقد يرجع المرء المظفّر خائبا

فحسبه أن يزاول الأمر بعد عرض أسبابه على محكّ الفكر ، ثمّ يقف بين طريق الأمل بالنجاح والخشية من الخيبة ، ويضرع إلى الله تعالى راجيًا حسن التوفيق ، إلى أقوم طريق . « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ »

رأينا من الناس من اندفع بلا عقل فى سبيل المضاربة ، ودخلها

من غير حساب لعواقبها ، فربح وخرج من السوق ظافراً محسودا . ورأينا منهم من يدخل السوق ويزن الأمور بميزان العقل ، ويحكم عليها حكماً منطقيًا يقينيًا ، فيُحْجم عن الشراء ، مع أنّ الواقع ربّما لا يتّفق مع رأيه ، فأمثال هذه الحوادث لا يصحُّ القياس عليها . ولو تأمّلت معنى تلك الآية ، وتفهّمت ما تحتويه من البيان ، وما تدلى به من الحجّة ، لعرفت أنّ الله عنده مفاتح الغيب ، وأنّنا لا نملك من أمورنا إلّا أن نزنها بعقولنا ، ونماشى الدليل ونستند إليه ، ونعوّل عليه ، فإذا عادى القدر مسعانا ، فلا حول لنا ولا حيلة . إنّ الذى يستسلم للمضاربة إذا صحّت معه الأحوال وجرت معه الأمور فى طريق غير معقول ، يوشك أن يرد منها مورداً يقضى على ماله ، وما أحكم المثل المشهور « ليس المخاطر محموداً وإن سلم » .

الشجاعة

الخوف غريزة كما علمت . أمّا الشجاعة فصفة كسبيّة تجود بها التربية ويصقلها التمرين . والجبان والشجاع سواءان عند الصدمة الأولى ، ثمّ يتفرّقان فيخور الجبان ويتعثّر فى أذيال الخيبة ، ويحتال الشجاع ليتملّص من الأذى . وقد أنصف ابن حزم ففسّر الشجاعة : « بأنّها بذل النفس للذود عن الدين أو الحريم أو الجار المضطهد ، وعن المستجير المظلوم ، وعن الهضيمة ظلماً فى المال والعِرْض وسائر سبل

الحقّ ؛ والصبر على ما ذكرنا جُبْن وَخَور ، وبذلها فى عروض الدنيا تهوُّر وحمق ، وأحمق من ذلك من بذلها فى منع الحقوق والواجبات ، وأحمق من هؤلاء قوم لا يدرون فيم يبذلون أنفسهم ، فيتعرّضون للمهالك : إمّا إلى العار ، وإمّا إلى النار » .

وقد التبس على بعضهم معنى الشجاعة فعدّها غريزة ، ووصفها بأنها قوّة نفسيّة كامنة تظهرها الحوادث من غير انتظار ، حتّى إنّ الشجاع بعد خروجه من ميدان القتال يرى أنّ ما أبداه فيه من البسالة والإقدام ممكن لكلّ شخص ، إذا أُتيح له موقف مماثل لموقفه .

والحقيقة أنّ هذا الوصف ليس يدلّ على الشجاعة التى نحن بصدد بحثها فى هذا المقام ، بل ينطبق على غريزة الهرب الآتية ، وهذه الغريزة تتنبّه فى احوال استثنائية ، عند الطوارئ والحوادث الفجائيّة .

وإذا سلّمنا جدلاً بأنّ الشجاعة غريزة ، تأتّى وجودها كالغرائز الأُخر فى كلّ شخص ومن دون جدّ ومكافحة ، وكان من العبث حينئذ أن تعدّ من ألقاب العظمة والتمجيد ، وأن يتأسّل بها الفخر فينتقل بالميراث من جيل إلى جيل .

الهمجىُّ لا يرى الشجاعة غريزة ، بل يعتقد أنّها تتولّد بالعلاج ، ذلك أنّ الوالد يذهب إلى المفازة فيصيد الأسد ، ثمّ يشقّ صدره ويستخرج قلبه وينضجه ويطعمه أبناءه فيشبّون على الشجاعة . وليس اختيار القلب من بين الأعضاء لإطعام أبنائه إلّا دليلا على أنّ القلب

هو آلة الشجاعة ، فإذا تمثّل فى الجسم وجرت عصارته فى الأعصاب ظهر الابن الصغير بمظهر البسالة والإقدام . وهـل الشجاعة فى نظر المتمدين إلّا صلابة فى الجسم ، ورزانة فى القلب ، وممارسة للمخاطر ، واندفاع فى حومة الوغى بصدر رحب ، واستخفاف بالموت فى سبيل المحافظة على النفس والأهل والعشيرة والوطن ؟

إنّ أغلى شىء يملك من الإنسان لبّه إنّما هو الحياة ، ولا شىء ينجيها من الأذى ويجعلها بمعزل عن مواقف الهلاك سوى البعد عن المخاوف ، أو بعبارة أخرى ، إنّ الجبن سبيل للحياة الهادئة التى ترتاح إليها النفوس الضنينة وهو لايحتاج إلى كفاح ، ولذلك عدّ من الغرائز ، فيكفل سلامة الجسم فى الطور الأوّل ، حتّى تتولّد الشجاعة فتتسلّم زمام الأمور ، وتسيّرها على الوجه الأكمل .

والشجاعة التى عليها مدار كلامنا ينطوى تحتها حبُّ الكسب من وجوهه الشريفة ، والصراحة فى القول ، وخدمة الأمّة بإبراز المخترعات النافعة ، وارتياد المجاهل ، والجهاد بأنواعه المشروعة .

قال ملك لوزيره وهو يختبر حذقه : ائتنى بأردأ طعام ، فى أقبح إناء ، يحمله أحقر إنسان . فظنّ الوزير أنّ طِلْبَة الملك سهلة ميسورة ، فاستحضر فولا ووضعه فى وعاء من الخزف ، واستأجر لحمله إلى الملك عاملاً حقير الملابس ، وكاشفه بالأمر . فدهش العامل وقال للوزير : لقـد أخطأت المراد ، وحدت عن طريق السداد ؛ دونك الطعامَ الذى تقدّر الوَجْبَة منـه بعشرات من الجنيهات ، وهو الطعام الغليظ

الذى تَضْعُفُ المعدة دون هضمه ؛ دونك الوعاءَ الذهبيَّ المكلَّل باليواقيت ، وقيمة الصفحة منهُ مئات من الجنيهات ، وهو الوعاء الذى إذا كسر كانت الخسارة باهظة ؛ دونك فلاناً الثريَّ الوارث المنغمس فى النعيم والترف ، اللاهى عن مهامّ الحياة ، الذى لا يبالى أن يكيل المال جزافا ؛ خذ هـذا الذى وصفته لك إلى الملك فإنّه الذى عناه بطلبه . وأجرؤ وأقول : إنّى — وإن كنت فقيرًا معدماً — ذو نفس شريفة غنيَّة . وهل فى شخص غيرى يتحقّق معنى الشجاعة وأنا أسعى إلى القوت بياض نهارى ، ومتى انتهى النهار جئت بأجرى الزهيـد وصرفته على بيتى ، معتقدًا أنّه ثمين ، لأنّه ثمرة عرق الجبين ؟

شجاعة العامل

نعم تتمثّل الشجاعة فى هذا الشخص وفى البنّاء مثلا ، ذلك الذى يقوم بعمله واقفاً على عود خشب قد ينكسر به ، أو يُفلت منه فيَهْوِى إلى الأرض ، وهو على كلّ حال معرّض لزمهرير البرد ووهيج الشمس ، قانع من القوت بالنزر اليسير ، راض من الرزق بالأجر الزهيد .

كذلك تتمثّل الشجاعة فى نفس العامل الذى انطوى به باطن الأرض ، إمّا فى مناجم الفحم بعيداً عن مناظر الكون الجميلة ، متنفّساً فى جوّ من الغاز السامّ ، وربّما انفجرت فيه عين ماء ، أو التهب فيه الغاز فيذوق الموت الزؤام ، وإمّا فى مسابك الحديد وقَبسُ النار يلمع فى الأفق ، وآلاف الشرر تتصعّد فى الجوّ ، ومذوب الحـديد يجرى كالماء فى الجداول ، إذا مسّ الجسمَ شىءٌ منه ذهبت النفس شَعاعاً .

شجاعة المستكشفين

كذلك تتمثّل الشجاعة فى نفوس المستكشفين الذين يهجرون

أوطانهم وما حوته من نعيم ، لتفقُّد البلاد النائية ، واستخراج حاصلاتها ، والانتفاع بخيراتها ، ويزيدون رفاهية العالم بما يوسّعونه من الأرزاق عليهم وعلى الناس .

شجاعة الجندى

وتتمثّل فى نفس الجنديّ الذى يخرج إلى الحرب وعلى جسمه العُدد ، والجوُّ متلبّد بالبارود ، يُلقَى إليه الأمر بالهجوم فينقضُّ على الحصن المسلّح ، وينال منه إحدى السعادتين : الفوزَ على العدوّ أو الموتَ الشريف ، ويبنى له ولقومه حصناً من الفخر ، ومكاناً من الرفعة. ومن لنا بمثل خالد بن الوليد الذى قال وهو يحتضر : « لقد شهدت مائة زحف أو زُهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وهأنا أموت على فراشى كما يموت العَيْر فلا نامت أعين الجبناء » .

شجاعة المخترع

وتتمثّل الشجاعة فيمن يسهرون للمصلحة ويجيدون المخترعات ، ويزاولون التجارب على ظهر البسيطة ، أو فى الجوّ وقرار البحر والموت يهدّد حياتهم . وكم ضحّى بها العلماء ، رغبة فى إدراك طِلْبتهم ، فماتوا شهداء المصلحة العامّة ، كالشخص الذى يخلّص غيره من شرّ أحدق به ، حبًّا فى حياة أخيه ، وإرضاء لضميره الشريف .

شجاعة أصحاب المبادئ

وتتمثّل الشجاعة فى نفس أصحاب المبادئ السامية ، تأمّل نصيحة أمّ عبد الله بن الزبير له ، وقلّما سمعت بمثلها من أمّ إلى ولدها . دخل عبد الله على أمّه فقال يا أمّاه : خذلنى الناس حتى ولدىّ وأهلى ولم يبق معى إلاّ اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ . فقالت : أنت أعلم بنفسك.

إن كنت تعلم أنّك على حقّ فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمان بنى أميّة . وإن كنت إنّما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وإن قلت كنت على حقّ فلمّا وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك فى الدنيا ؟ فقال يا أمّاه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثّلوا بى ويصلبونى . قالت : يابنى : إنّ الشاة المذبوحة لا تتألّم بالسلخ ، فامض على بصيرتك ، واستعن بالله

فترى لصاحب المبدأ عقيدة راسخة ينطلق لتأييدها ونشرها ، غير مبال بسخط الساخطين ، أو عقاب الحكّام ، وكلُّ ما يلقاه من العدوان حينئذ يقع فى نفسه موقع القبول . فكم صبر الأنبياء والحكماء على أذى الناس لاعتقادهم أنّ الحقّ ناصرهم . وكم تحمّل جوناس هاناوى (Jonas Hanaway) استهزاء الناس به ، سائرًا فى شوارع لندن فى يوم ممطر ، حاملاً مظلّة اخترعها لم يعهدها الناس من قبل . وقد لبث فى جدّ متواصل حوالى ٣٠ سنة لا يبالى بما يوجّهونه نحوه ، حتّى نجح فى نشر استعمالها .

الشجاعة فى جهاد النفس

هذه الجهود التى استلزمتها الشجاعة على مافيها من السموّ ورفعة القدر ، يراها الحكيم دون شجاعة من يجاهد نفسه فيحضّها على الفضائل ، ويبعدها عن الرذائل ، ولا عجب فإنّ صلاح النفس دِعامة صلاح الأمور .

لا ترجع الأنفس عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجر

التخويف والتشويق

كانت العقوبات البدنيّة فيما مضى أنجع علاج للتقصير ، حتّى زعم بعضهم أنّ الطفل إذا أخطأ فقد عاد إلى طبعه الفاسد ، ولا يرجعه عنه إلّا الإرهاق . وقد تبيّن لك ممّا كتبناه فى باب الفطرة قيمة هذا الرأى . ومن رجا أن يزيد الخوفُ الانتباهَ قوّةً ونشاطا فقد طلب شططا . فإنّه على العكس يدعو إلى البله والذعر ، ويجعل الأمر البسيط صعب المنال . فلو سرق الطفل شيئاً وعوقب بالضرب الذى من شأنه أن تشمئزّ منه النفس . فإنّ السرقة وألم الضرب يرتبطان معاً فى ذهنه ، فيعرض أحدهما عند عروض الآخر على سبيل تداعى المعانى . فيجتنب السرقة لما يترتّب عليها من النتيجة المبغضة . وقد رأى العالم اسبنسر — وهو من غلاة الناقدين لهذه الطريقة — أن لا ملاءمة بين السرقة والضرب ، فإذا أخطأ الطفل فسرق ، لا يليق بالمعلّم أن يخطئ فيضربه ، لأنّه وقتما يريد تقويمه يقع هو نفسه فى ذنب آخر ؛ ونَبالة مقصد التعليم تأبى ذلك ، وتجيز له أن يستبدل بها طريقة العقاب الأدبىّ وهو أشدّ وقعاً فى النفس ، ذلك أن يأخذ المعلّم من مال السارق ما يفى بالمبلغ المسروق صفقة واحدة أو نجوما ، كى لا يفقد صاحب الحقّ ماله ، ولتقوى الرابطة بين المعلّم والتلميذ .

الجهاد فى إزالة شكوك الطفل

وكم يبلغ تأثير المعلّم إذا تفقّد الشكوك النفسيّة وعمل على إزالتها وأنفذ بصره فى العواطف فاستثارها . لى ابن كان يناهز الرابعة من

عمره أصابه قَبْضٌ « إمساك » فأعطيته كعكة فيها مَشِيٌّ « ملين » ، وقلت له : إنّى اشتريت لك هـذه فكُلْها لتبرأ من المرض ، فرأيتـه وقع فى ريبـة من أمرها ، ولمّا تفرّست فيـه أنّه عدل عن تناولها ، تخيّرت طريقة أخرى أضمن لشوقه ، وأبلغ فى قبول نصحى ، هى أنّى رجوته ألّا يأكلها الآن ، بل يبقيها لديه يتأمّل ما احتوته من حسن رائع ورائحة ذكيّة ، ولمّا تركته علمت أنّه تناولها طائعاً مختارا .

فالأوامر والنواهى لا تؤثّر إلّا إذا صادفت شوقا ، ولا مانع من أن يدع المعلّم تلميذه يجرّب ما تيسّر من الأمور ليدرك نتيجة تجاربه ، وإذا عاد مخذولاً فقلّما عاد إليها . هبك قلت له : « لا تمسك المِبراة لأنّها حادّة وأخشى أن تجرحك » . أتراه يطيعك ويعمل بنصيحتك؟ كلاّ . لكنّه إذا أمسكها وأساء استعمالها ، ثمّ أصابه جرح فجئت إليه وذكّرته بالضرر الذى نشأ من سوء استعمالها ، وأريته وجـه الخطأ ، وأظهرت له العطف والشفقة ، وأرشدته إلى الطريقة المثلى ، فإنّه يكون لك سميعاً مطيعا ، وتتربّى فيه الإرادة الصادقة والنظر السديد .

فطريقة التشويق تلطّف الطباع ، وترهف حدّ الإرادة ، وتقوّى عرا المودّة . وطريقـة الإرهاب تسقم البدن ، وتدفع الفكر إلى العمل قسرا . ولو تأمّلت هاتين الحالين لوجدت فى كلّ منهما منزعاً مفيدا . على أنّ شئون الاجتماع لا يستطيع أن يصوغها الإنسان على وَفق هواه فمرّة تحلو ومرّة أخرى تمرّ . ومن لم يمرّن نفسه على وقع المصائب شقّت عليه ، ولا يستطيع على طول الزمان مكافحتها ؛ لذلك كان

obeikandl.com

يفعل هـذا فعلاً غريزيًا متى أحسّ من نفسه ضعفاً أمام عـدوّه ، ليزعجه بهـذا الانقلاب الغريب قبلما يتّخذ إلى الفرار سبيلا . وترى السبع وهو سيّد الحيوان يركن إلى الحيل عند لقاء عدوّه ، فيخشع أو يتقهقر حتّى يستجمع قوّته ، ثمّ يتحيّن الفرص للافتراس . وقـد جاء فى المثل : مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاع (١)

إنّ الشجاع إذا فاجأه الخوف لا تَفْتُر همّته ولا تتزعزع عزيمته ، بل يتريّث ليوازن بين قوّته وقوّة خصمه ، ويعالج الأمر لعلّه يجـد مجالاً للفوز ، وإلاّ التمس طريق الفرار صوناً لحياته ولا عار عليـه ، وينشط الجسم حينئذ نشاطاً قلّما خطر له بال . فقد حدّث أحـد السائحين أنّه رأى رجلاً فارًّا من أسـد يحاول افتراسـه ، وفى أثناء فراره تسلّق جداراً عالياً ، ولمّا زال الخطر عاد هذا الرجل إلى تسلُّق الجدار فشقّ عليه. وربّما لايحصل الهرب وإنّما يقوم مقامه الاضطراب إذا اشتدّت وطأة الخوف ، كالذهول الذى يحسّه المستيقظ وقد شُبَّتْ النار بمنزله . وربّما برَق شعاع من نور عقله يثير فيه النشاط إلى إخماد النار أو الفرار طلباً للمساعدة . وكالفزع الذى ابتأست به قلوب اليابانيّين من الزلزال الذى نُكبَت به البلاد فى صيف عام ١٩٢٣ ، فقد كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان ، تكتظّ أرجاؤها بالقصور الضخمة والشوارع المعبّدة ، وأهلها مسوقون بالمطامع ، يدّخرون الأموال لعمر مديد ، وعيش سعيد ، وفى غضون خمس دقائق

(١) ساكن لداهية يريدها

اندكّت تلك الصروح ، وغارت فى الأرض تلك الأبنيـة ، وغضبت الطبيعة فجرّت من الويلات ما جرّته تلك الحرب الضروس فى مدى الخمسة الأعوام .

مادت الأرض وانشقّت طرقاتها فابتلعت الغادين والرائحين ، وخرّت المبانى على رءوس الساكنين ، واندلعت ألسن النيران ، وهاجت أمواج البحر ، فهلع القوم من شر ما رأوا ، وانطلقوا على غير هدى يحاولون الخلاص ، وكلّما خرجوا من خطر تلقّاهم غـيره ، ومن نجا من هذا وذاك بات عرضةً للجوع والعطش والعرى .

هكذا ازدحمت عوامل الهلاك ، فأطارت لبّ العاقل ، وروّعت قلب الشجاع ، وخرجت البلاد من هـذا المصاب داميـة الجروح مَهيضة الجناح . ولولا صدور مفعمة بالشجاعة وقلوب لم يتسرّب إليها اليأس لباتت اليابان أثراً بعد عين .

رأى وليم جيمس أنّ الاضطراب من الفزع يحصـل عقب الإحساس به ، ويحصل الخوف تبعاً للاضطراب ، وانتقد قول بعضهم فلان ساءه حظّه فحزن ثمّ بكى ، ورأى فلان عـدوّه فخافه ثمّ فرّ . لأنّه يرجّح تقدّم البكاء على الحزن فى المثال الأوّل ؛ وتقدّمَ الفرار على الخوف فى المثال الثانى ؛ واستدلّ على رجحان رأيه بالاضطراب الذى نحسّه أوّلاً متى بدأنا بالمسير فى طريق مظلمة ، ومتى باغتنا صوت مزعج ، ومتى رأينا صاحباً يتقلّب على مهاد الآلام

وقد اتّبع وليم جيمس هنا طريقـة القرآن المبسوطة فى هـذه

الآيات من سورة الكهف : « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُود . وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَال ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ [1] لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبا » فإنّ تقدُّم ذكر الفرار على الرعب يشير إلى الترتيب الزمانىّ فى الجملة .

٤) غريزة الغضب

هى كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميول ، ولا صلة بينه و بين المعانى التى تفرّغ لها الذهن . وتخالفها فى أنّ الخوف يحمل الإنسان على الهزيمة والفرار ، وأنّ الغضب يفضي إلى الهجوم والاشتجار .

عند الغضب يُسْرِع الدم إلى القلب كما يحصل عند الخوف ، ثمّ يثور فينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن فيحمرُّ الوجه ، وينتفخ الودَجان ، ويجيش الصدر ، ويَعْبس الوجه ، وتنكشف الشفتان عن الأسنان ، وينطلق اللسان بالإقذاع ، وتتأهّب الأعضاء للفتك كالوحش الضارى ساعة الافتراس ، وقد مثّل الإمام الغزالىُّ الدماغ عند الغضب بكهف أضرمت فيه نار فاسودَّ جوُّه ، وحمى مستقرُّه ، وامتلأت جوانبه بالدخان وكان فيه سراج مضىء فانطفأ نوره .

(١) الكهف

obeikandl.com

obeikandl.com

فغضب المأمون واعتذر له المكوك بأنّ المأمون وآل بيته لا يقاس أحد بهم ، ويعجز لسان المديح عن تقدير وفير مآثرهم ، فلم يُقِم المأمون لهذا الاعتذار وزناً وأهدر دمه . ونحن إذا أنكرنا على المأمون سَوْرَةَ الغضب فى هذا المقام وفى غيره ، والتصدّىَ لإهانة العلماء الذين كانوا يذهبون إلى ما يخالف رأيه ، فإنّنا لا ننكر على أخيه المعتصم سَوْرة الغضب التى سادت عقله حينما سمع قول العربيّة فى أرض عمّورية من إقليم الروم : « لا معتصماه ولا معتصم اليوم » فإنّها أثارت فيه حميّة العرب ، ولم يبال حينئذ بنصائح الذين تخرّصوا وكذبوا وأرادوا صدّه عن الغزوة وعن انتصاره للبائسة الحزينة ، وقد انطاق بذلك لسان أبى تمّام فى قصيدته التى مطلعها :

السيف أصدق إنباءً من الكتب فى حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب

لا ننكر الغضب الذى يتولّانا من رؤية المُنْدِيات المُخْزِيات التى يندى لها الجبين حياء . ومن سماع المكابرة فى المناظرة ، ومن التمسّك بالرأى الذى لا يستند إلى الدليل ، ولدى إغفال الحقّ ، وإنكار الصدق ، وعند الازدراء ، وفى مواطن الإيذاء ؛ فكان المصطفى يغضب فتحمرُّ وجنتاه ، ولم يخرجه الغضب عن محجّة الصواب ، حتّى صحّ ما يقول أرسطو أىُّ انتصار ينال فى الحرب بلا غضب ؟

إنّ الغضب كالأفعى ذات الملمس اللين إذا بطشت غدرت ، وكالقوّة الغاشمة إذا حكمت ظلمت ، وكسيل الماء ذى اللجّة الجارفة لا يأمَنُ من عثاره ، مَن سار فى تيّاره ، حتّى لقد أشار المصطفى على

من استوصاه بنصيحته الثمينة فقال له : « لا تغضب » ، ويعسر على غير الحكماء أن يضبطوا شكيمته ، ويخففوا وطأته .

إنّ الغضب إذا هبط بمقدار مناسب كان منبّهاً للحميّة ، محرّكاً للنفوس الأبيّة ، موقظاً للنخوة ، مثيرًا للشجاعة والفتوّة

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر[1] تحمى صفوه أن يكدّرا

كظم الغيظ

قال ابن الرومىّ :

« توقّى الداء خير من تصدّ لأيسره وإن قرب الطبيب »

فينبغى للعاقل ألّا يتأثّر بفواعل الغضب ، وأن يحارب وسائله ما استطاع ليكون عاملاً بأوامر الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» ولقد صدقت عزيمة رجلين سارت الركبان بشهرتهما فى السماحة والحلم: معاوية بن أبى سفيان والأحنف بن قيس . كان معاوية يسمع كلام الناقد فلم تأخذه ضغينة ولم ينقم منهم ، وإنّما كان هذا يدفعه إلى توخّى العدالة ، وإزالة أسباب المظالم ؛ ولا تسل عن ثمرات صنيعه فكانت كلّها خيرًا وبركة . ومن مأثور حِكَمِه « لو أنّ بينى وبين الناس شعرةً ما انقطعت » . ولما سئل عن ذلك قال : « كنت إذا

(١) البادرة : ما بدر من الحدّة من القول والفعل فى وقت الغضب

مدُّوها أرخيتها ، وإذا أرخوها مددتها » . وأمّا الأحنف فقد جاءه رجل وأخذ يسبُّه والأحنف مطرق صامت ، فلمّا رآه الرجل مُعْرِضاً عنه أقبل يَعَضُّ إبهامه ويقول : يا سوءتاه ، والله ما يمنعه من جوابى إلّا هوانى عليه .

بُلى سقراط بزوجة شرسة كانت تكيل له من ألفاظ السِباب ما ليس له به طاقة ، وضاقت أمامه الحيل لتثقيف طباعها ، فأشار عليه جُلّاسه ومريدوه أن يطلّقها فأجابهم « إنّى لا أحنَق عليها لأنّها بهذه المعاملة السيّئة تعلّمنى فضيلة الصبر » .

وروى المويلحىُّ أنّ ملكاً سمع اثنين من حرّاسه يذمّانه من وراء خيمته، فرفع الستارة وقال : « ابعُدا قليلاً خشيةَ أن يسمع الملك محاورتكما » .

وقال ابن المقفّع : « إنّى علمت موطناً واحداً ، فإن قدرت أن تستقبل الجدَّ بالهزل فيه أصبت الرأى وظهرت على الأقران ، وذلك أن يتورّدك متورّد بالقَسَة (١) والغضب ، فتجيبه إجابة الهازل المداعب برُحب من الذرع ، وطلاقة من الوجه ، وثبات من المنطق » .

هذه المرتبة من التسامح لا تنال إلّا بتوفيق من الله ، وتوطين النفس على المكاره ، واحتمال أذى الناس ، والترفّع عن نقائصهم ، كما يترفّع السبع فى قفصه عن النظر إلى من يحصبه . وما أحرى المستاء أن يلتمس المعاذير للمسيئين بأنّهم ليسوا من المكانة بالدرجة التى يُعتدُّ بها ، أو بأنّهم أساءوا من غير قصد ولا إرادة ، أو بأنّهم قصدوا الإساءة

---

(١) قارص الكلام

ليتعرّفوا مقدار ما يُسْدِيه المحسن من المغفرة فيكفّروا عن ذنوبهم ، ويرجعوا باللائمة على نفوسهم . وقد اتّسع لهذه الأحوال صدر هـذه الآية الكريمة : « وَلاَ تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلاَ ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » .

نعم لا يليق بنا أن نجبن أمام إساءة المسيئين لئلاّ يستهتروا بنا ويزيدونا بلاء . وإنّنا لو أنصفنا أنفسنا لأسعفنا المسىء بحلم نداوى به خُرْقه لَعَلَّه يُكْبِر النعمة ، ويشكر الصنيعة ، ويزنها بميزان عقـله . حتّى إذا رأينا فيه نزوعاً إلى الشرّ علمنا أنّنا غرسنا المعروف فى أرض قاحلة فنستبدل بالإحسان . عقوبة الحرمان .

التجلد

ويكون كظم الغيظ بالتجلُّد والتسلّى ؛ أمّا التجلُّد فهو نهاية ما تبلغه نفس الحليم من الصبر ، وهو مِفتاح الهَوَادَة والأناة . وأبلغ ما نستشهد به فى هـذا المقام ما حكاه المويلحىُّ أنّ وزيرًا أراد أن ينصح الملك باجتناب الخمر ، لأنّه يخـذل النفوس فى مواطن الإصابة ، فلم يَرْتَحْ ضمير الملك إلى هـذه النصيحة التى أثارت فى صدره نار الغيظ فهمّ بالانتقام : أمر بالأقداح فمدّت ، وأخـذ يحسو الشراب حتّى امتلأ ، ثمّ أمر بابن الوزير فأجلسه على مرمى سهم ، وقال لأبيه سأريك إذا كان للخمر تأثير فى قوى العقليّة ؛ وهنا رمى السهم عن القوس فأصابه فى قلبه إصابة أسقطته على الأرض صريعاً مضرّجاً بدمه . رأى الوزير هذا المنظر الفظيع فتجلّد ، وقال للملك : فعلك هذا — أيُّها الملك — قد بلغ من الإصابة حدًّا لا يستطيع إله الصيد والقنص أن يدركه .

فقدّر شأن هذا الحلم السديد ، والنظر البعيد ، فى أشدّ ساعات المحن ، وأفنك خاطرات الرزايا ، ولو بدرت منه إذ ذاك فلتة من كلامه أو حركات أعضائه لكان هو وأهل بيته وَقودًا للظى غيظ الملك .

التسلى

ومن مخفّفات الألم المثير للغيظ استذكارُ حوادث الماضين ملوكًا كانوا أو أمراء ، والمصيبة إذا عمّت هانت . فكم سمعنا عن ملوك أصبحوا من الرعايا ، وأمراء أذاقتهم الأيّام مرارة البلايا . وحيثما كان الإنسان عرضة للنوب والغِيرَ فما أحقّه إذا حُمّ القضاء أن يستسلم لحكمه ، ويذَر الغضب بفائق حزمه . وليس فى الشكاية من بلاء سوى أنّها تفتح للشامتين أبواب المهانة والازدراء .

رؤية الغاضب وجهه فى المرآة

هل للغاضب أن ينظر إلى وجهه فى المرآة وقت الغضب ؟ إذا فعل ذلك وجد وجهه الذى يقطر ماء البشر منه قد تلبّدت به غيوم الكآبة ، فصار قاطبًا عابسًا كالحًا مكفهرًّا ، كما ترى فى الشكل الآتى

تجنب الحسد

ومن ذرائع كظم الغيظ اجتناب الحسد . والحاسد يتطلّع دائمًا إلى نعم الله على عباده فلا يهنأ له حال . هلّا علم أنّ الرزق مقسوم ، بقدر معلوم . يَحِقّ له أن يفرح إذا رأى مظهر النعمة فى أخيه فيتسنّى له أن يقتبس منه العلم والجاه والقوّة ، وقد أشفق أبو الحسن التهامىّ على حسّاده بقوله : —

إنّى لأرحم حاسِدِىّ لشرّ ما ... ضمّت صدورهمُ من الأوغار

نظروا صنيع الله بى فعيونهم ... فى جنّة وقلوبهم فى نار

لا ذنب لى قد رمت كتم فضائلى ... فكأنّما برقعت وجه نهار

obeikandl.com

وكثيرًا ما يفشل وهو يطلب الأمر الواحد ، فكيف به إذا تشعَّبت المطالب وخرج من الجميع صفر اليدين ؟

علاج الغضب

وإذا ساورتك هموم الغضب فأخلد إلى السكون ، لأنّ الحركة تحدث الحرارة وهى تثير الغضب . وفى الحديث « إذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضّأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإنّ النار لا يطفئها إلّا الماء » . عليك أن تتعهّد بدنك بالنظافة ، وجسمَك بالتنزُّه ، وأحشاءَك بالرعاية ، وعقلَك بالراحة . وعليك أن تزيل عن صدرك صدأ الهموم بترتيل الشعر ، وسماع الألحان ، وإدمان النظر إلى بدائع الكون ، والسير فى الرياض وبين الأزاهر . وعليك أن تركن إلى مجالسة العلماء ومحادثتهم ، فإنّهما لِحَرّ الغضب بردٌ وسلام .

المعلم والغضب

علمت أنّ الذهن ساعة الغضب يختلُّ مزاجه ولا يعود قادراً على أن يجول جَوْلة صادقة فى تربية النشء ، وقد يثور لأتفه الأسباب ويبطش ، ويذهب فى ميدان التعذيب مذاهب شتّى ، ولذلك اشترطوا فى المعلّم أن يكون من الحلم والأناة والهوادة وترقُّب المصلحة بحيث يتمالك نفسه ويصدُّها عن الغضب إذا قصّر التلميذ فى واجبه العلمىّ والأدبىّ . وأجْدِرْ بالمعلّم أن ينقّب عن أسباب هذا الإهمال ويحاسب نفسه لعلّه يكون قد فرّط فى بيان الدرس ، أو جاوز حدًّا لا يستطيع

ذهن الطفل تمثيله وإدماجه فى سلك معلوماته . نعم إن التلميذ إذا أوجس خيفة من صارم العقاب يخمُد فكره ويقف عند فهم أسهل المسائل ، وربّما داهن أو راءى وقلبه مملوء بالكراهة ، فينبهم على المعلّم مسلك الصواب ، ولا يقدر على درس أطوار الطفل من خلال حركاته . على أنّ الغضب — مهما كان قليلًا — يجرُّ إلى عواقب بينها وبين التأديب بون بعيد . ويحسُن بى هنا أن أورد أمثلة تؤيّد ذلك.

رأى والد فى ابنه إهمالا فهمّ بإنفاذ العقوبة ، فاتّقاها الولد بالهرب ، ولمّا لم يدركه الوالد رماه بكرسىّ أصاب فى رأسه شريانًا فأدماه ، فندم الوالد ورجع خائبًا أسِفًا من شرّ ما فعل .

غفل طفل عن حفظ درسه فأوقعه المعلّم تحت طائلة العقاب ، وضربه بمسطرة ضربة مُبَرِّحَة فجرح يده ، شقّ ذلك على المعلّم فاستعان بغيره على تضميد الجُرح وتخفيف لوعة الألم ، ولمّا اطّلع والد الطفل على ما حصل استفظع العقوبة ، وشفى غليله من المعلّم بشكايته. فانظر كيف أدّى الغضب بالمعلّم إلى الخرق فى الرأى ومضاعفة العذاب ، « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

خرج طالب عن حدّ الأدب فى أثناء الدرس فهاجَ سخطَ المعلّم ، ولَعَلّه أسرف فى العقوبة وكاشف التلاميذ بأمرها ، بَيْد أنّ الناظر استعظم العقوبة واستبدل بها التأنيب إحقاقًا للحقّ ، فتزعزع بعد ذلك مركز المعلم ، ولم تَعُد عقوباته مرموقة بعين الاحترام .

سمع معلّم فى درس الخطّ رنّة صوت تتردّد فى أنحاء الحجرة ،

obeikandl.com

والإنسان يبطش بقوّته البدنيّة وبما عنده من قوّة العقل والتدبير، فيخترع العُدَد والأسلحة ويصيد ما شاء من ضوارى الحيوان وكواسر الطير ولو بعيدة عنه، وإذا تجرّد من إنسانيّته جرّد سيفه على أخيه، وبطش به، وأنذر بشرّ مستطير، وهدّد سلامة العالم. ومن أجله قالت الملائكة للبارئ جلّ وعلا: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماء». واختال بقوّته فخدعته وحالت بينه وبين الحقّ، فقديماً اعتدى أحد أبناء آدم على أخيه «فَطَوَّعَتْ [1] لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِين». ومن ممارسته لقوّته واعتماده عليها فى أطوار حياته وعدم اكتراثه لتحرّى سبل الحقّ تسرّبت بالوراثة منه إلى ذرّيّته، فبدت فى البدوىّ والحضرىّ وفى العالم والجاهل وفى كريم النفس ولئيمها «والكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع» على الفروسيّة وحدها معوّل البدوىّ، فبها ينصب نفسه زعيماً على قومه، ويبذّ أقرانه فى حومة الوغى، ويصول على من يغمط حقّه، وينازل من يمسّ كرامة عشيرته ومن يلوذ به، ويبلى البلاء الحسن فى المحافظة على شرفه، حتّى أصبح الأخذ بالثأر من أقصى أمانيّه. بذلك مَجَّده الناس وكرّموه وتماجَدُوا [2] به وأحلّوه سويداء قلوبهم، وأكبروا قدره وتنافسوا فى الانتماء إليه بالقرابة والمصاهرة، وعاونوه على تنفيذ أغراضه، وجادوا له بنفوسهم لاعتقادهم أنّ وصمة العار لا يزيلها إلّا الأخذ بالثار، كما تزيل النار خبث المعادن

(١) سهلت (٢) تفاخروا وأظهروا مجدهم

أمّا سكّان المدن فشغلتهم حضارتهم ورفاهتهم عن المصارعة البدنيّة ، وعدّوا عمرهم أغلى من أن يقامروا به ؛ فأنابوا عنهم حكومة يقظة مسلّحة ، وكلّفوها الذود عنهم فى الوقت العصيب ، واستعانوا بها على حماية حقوقهم ، ثمّ وجّهوا قوّتهم إلى تذليل القوى الطبيعيّة واستخدامها لتشييد قواعد العمران وترقية شئون الجماعات . بذلك استعاضوا عن خشونة البدوىّ دمائةَ الطبع وزيّنوا بها مجتمعاتهم ، ورفعوا شأن من تحلّى بها فصارت غريزة من طول ممارستها . ولا تكاد ترى عند أحدهم من الجراءة البدنيّة ماتراه فى البدوىّ ؛ بيد أنّ طبيعتهم الأصليّة لا تزال تتغلّب عليهم فيتحيّنون الفرص للإفلات من وطأة القانون ، ويتّخذون من أسِنّة ألسنتهم وقواطع حججهم ما هو أشدّ بأساً من الحسام ، وإذا أعيتهم وسائل الإقناع واستمرّوا على تعصّبهم لرأيهم خرجوا من حظيرة المجادلة إلى المشادّة ، فهدّدوا وأوعدوا . قال المتنبى فى هذا المعنى وأجاد :

إنّما أنفس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شىء غلابا ... واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كلّ غاد لحاجة يتمنّى ... أن يكون الغضنفر الرئبالا

المبارزة

ومن دلائل تمجيد الناس للقوّة البدنيّة إكبارهم لأبطال الحروب ، والمبارزة من أشدّ الوسائل لاحتدام الخواطر وجَيَشان القلوب وإضرام نار الحرب . يبرز من الجيشين بطلان للمشادّة والمغاضبة ، ثمّ ينتصر الفريقان كلّ لصاحبه ظالماً كان أو مظلوما .

وربّما كانت المبارزة آخر سهم فى كنانة المتحاربين ، ومفزع زعمائهم حقناً لدماء المستميتين . فقد دارت رحى الحرب بين على ومعاوية بيعت فيها النفوس بالثمن البخس ، وخشى المسلمون اتّساع نطاق الفتنة ، فتقدّم علىّ إلى معاوية وقال له : « علام يقتتل الناس هلمّ إلى الله فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور » وهذا مما امتاز به علىٌّ من ضروب الحكمة . ومن غلب عقله هواه ، وقلب العداوة صداقة ، والمكافحة مصالحة ، والحرب سلما ، كان أولى بالإعجاب وأحقّ بالإكبار ، ومثل علىّ من يجود بحياته لتقليم أظفار الفتنة

وإلى عهد قريب كانت المبارزة مرجع المتنازعين يلجئون إليها للفصل فى أمورهم . والمتفرّجون يتهافتون على ميدانها . هاتفين مصفّقين لمن يحوز الفوز ، وهو يُعَدّ صاحب الحقّ فى نظرهم ولو كان فيه دعيّا . ولكى لا يتفاقم الشرّ يقف الأطبّاء من ورائهم لتضميد الجروح وإسعاف المصاب ، ومتى شهد له الحاضرون بالفخر برد دمه الثائر ، وانثنى إلى المهزوم عاطفاً عليه متقدّماً إليه بوجه باشّ وصدر رحب ، ويده ممدودة للمصافحة إيذاناً بأنّ صلة الودّ قد عادت ، وأوضار الضغينة قد التهبت واحترقت .

والناس تلقاء هذه الغريزة صنفان : صنف بالغ فى قهر غيره استرسالاً منه فى مطالب هذه الغريزة ، ومنهم قدامى الإغريق ومن جرى على شاكلتهم فقد اتّخذوا للحرب إلهاً ، وبلغ استهتارهم بالضعفاء

حدًّا ممقوتا ، ذلك أنّهم كانوا يرمون الطفل من حالق[1] متى تسرّب إليه المرض الذى يشلّ أعضاءه فيصبح مغلوباً على أمره ، كلا على أهله وعشيرته ، عائشاً فى بوائق الذلّ ، منذرًا بذرّيّة سقيمة ، والحياة تتطلّب الجهاد الدائم لمصارعة الشدائد والنوازل ، وما لم تتحقّق فى الإنسان بشائر القوّة فالموت خير له . بهذا و بغيره ضلّ أتباع هذا المذهب وغلّبوا اليأس على الرجاء ، وجرّدوا قلوبهم من حلية الرأفة وهى أكبر مزايا الانسان . ينصبون الفخاخ للضعفاء ، ومتى صادوهم ارتكبوا معهم الفظائع وأذاقوهم مرّ العذاب ، وكلّما سمعوا منهم تأوّها استخفّهم الطربُ فازدادوا سرورا ، وهؤلاء هم المردة الجبابرة السفّاكون لدماء الأبرياء . وصنف آخر استعانوا بالقوّة لتخفيف ويلات الإنسانيّة ، يجودون بمالهم وعمرهم ، ويتجاوزون عن حقّهم فى القصاص ، وما العفو إلّا عند المقدرة ، فهؤلاء قد شايعوا دين الفطرة فى أسمى مبادئه المبسوطة فى هذه الآية « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ »

ثمّ كانت الرحمة المطلقة شعار فريق من الهنود ، حرّموا ذبح الحيوان استفظاعاً لتعذيبه ، واستنكاراً للنزول فى الفتك إلى مستوى الحيوان ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرّىّ الذى عاش نباتيّا ، ومن شدّة تمسّكه بمبدئه كفّ عن أكل اللحم حتّى فى وقت الحاجة ، فقد روى أنّه مدّ يده يوماً إلى طعام وصفه الطبيب فوجده دجاجة ، فامتنع عن

(١) الجبل المرتفع

الطعام وخاطبها بقوله « استضعفوكِ فقتلوكِ هلا قتلوا شبلا »

ومن يتفقد حالنا الاجتماعيّة يرأغرار الأقوياء يهزءون جهارًا بالضعفة ، ويناوئونهم ، ويستحلّون أموالهم ، منتحلين الأسباب التى تخوّلهم ارتكاب الظلم ، وهى ديدن أهل النقيصة والإثم . وربّما أيّدوا مذهب الاشتراكيّة فيقولون: مابالنا نرى الناس متفاوتين فى اليسار ، وأخلق بالأقوياء أن يكونوا به ممتازين . وربّما استبدّوا فاعتقدوا أنّ الناس فطروا على الظلم ، واحترموا الظالمين ترويجًا لمذهب زهير بن أبى سلمى « ومن لا يظلم الناس يظلم » ، وربّما تمثّلوا بقول الإباحيّين

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذّة الجسور

أمّا القوّة الغاشمة فهى عارية مستردّة ، يذهب بزوالها فضل المستندين إليها ، ولنور الحقّ ضياء لامع ، ولشدّته هيبة تخرّ لها جباه الجبابرة ، فإذا ما برق امتدّت له أعناق البائسين ، وساروا بهديه مسترشدين . إنّ رفع العقيرة بالحقّ من دون الاستنصار بالقوّة لا يجدى ، لأنّ صوته وحده فاتر ، وسلاح القوّة وحده قاهر ، وقسطاس العدل لا ينصب إلّا بتناصرهما وتوازرهما ، ومن جاهد فى الحياة بدونهما معًا فلا محيص من انهزامه . وكما تكون القوّة بالسلاح تكون باجتماع القلوب ومعاضدة الأيدى وطهارة النفوس من أوضار الحقد ، عند ذلك يستند كلّ إلى صاحبه كما تستند الصخرة إلى الصخرة ، فيكون منهما بناء راسخ يكافح الحدثان على ممرّ الزمان

الأمم كالأفراد تثيرها القوّة ، فتاهو عن الحقّ وتستهتر بالضعيف ،

وتريد أن تحافظ على عظمتها فتشيّد الحصون وتعبّى الجنود ، وإذا سئلت ما ذا تقصد من وراء هذا ، أجابت بأنّ الاستعداد للحرب من ذرائع السلم ، ثمّ تخونها عقيدتها المتكلّفة فتتنصّل بسفساف الامور لتسوّغ إصلاء نار الحرب ، فتندفع إليها من غير حساب لعواقبها اندفاع السهم إلى الرميّة . ومع أنّها تعلم أنّ الحرب تجرّ الشرّ على الغالب والمغلوب على السواء ، فإنّ بوارق الأمل بالانتصار تتلألأ أمام عينيها ، والنصر معيار لقوّة الشعوب ، وعليه مدار عظمتها وفخارها . على أنّ طبيعة القهر كمينة فى النفوس تظهرها القوّة ويخفيها الضعف ، والسنن الكونيّة لا تدافع ولا تعارض ، وليس للكائنات منها مهرب . والحرب من لوازم الحياة تقتضيها سنّة تنازع البقاء ، وربّما تهادنت عناصر الموجودات زمناً ولكنّها تعود إلى الخصام ، فهدنتها على دَخَن[1] ، إليك الصخر الأصمّ تخرج ناره إذا قُدِح فيه ، والأشجار الكثيفة فى الأحراج تحرّكها الرياح فتحتكّ فروعها بعضها ببعض وتشتعل ، وقد جاء فى المثل « فى كلّ شجر نار ، واستمجد المَرْخُ والعفار[2] » . وجوف الأرض فى سعير دائم يندفع ماء البحر إليه ، فإذا لمس النار استحال بخاراً تميد من زلزاله الأرض ، وتخرّ من بطشه رواسى الجبال فتتناثر جزرًا ووهادا . وقد يخرج البخار من شقّ أرضىّ جاذباً معه مذوب المعادن والأحجار فتتراكم وتحدث الجبال . والماء يتأثّر بالشمس فيستحيل بخارا ، يذهب إلى الجوّ صُعُدًا وينعقد سحابا ،

(١) صلح على فساد (٢) استكثرا من النار . والمرخ والعفار كلاهما شجر الورى

ثمّ يتكاثف وينزل إلى الأرض ماء . والحيوان يتغلّب على النبات ، والإنسان يسطو على الحيوان ، وعلى الإنسان تتغلّب عوامل الفناء فيموت ، وتمتزج أشلاؤه بالتراب ويصير غذاء للنبات ، وهكذا تنتقل الكائنات من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة بنظام دقيق لا يعتريه فتور ولا يصادفه خلل

تثقيف هذه الغريزة

كلُّ شيء فى نظر الطفل داخل فى حدود الممكنات ، فإذا نال ما طلب فقد لبّى نداء غريزة الملك واستراح ، وإلّا فإنّه ينضب فتنبّه فيه هذه الغريزة وما تنبّهت إلّا لتريح أعضاءه الهائجة بالصياح والعويل والتمريغ على الأرض ولطم الوجه وتمزيق الثياب ، ولا يزال كذلك حتّى تخمد ناره وتهدأ ثائرته . ومن ذا الذى يستطيع كتمان هذه القوّة التى تنوء بحملها صدور الأقوياء ، فالعين تذرف الدمع تلطيفاً لحرارة الحزن ، والقلب يفزع إلى الصراخ تخفيفاً لوطأة الفوادح ، وهذا ما صيّر النسوة أصبر من الرجال على حمل المصائب ، وما أحكم الخنساء فقد استذرفت الدمع عند ما نُكبت بوفاة أخيها فقالت

أعينىّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

والإغضاء على بوادر الغضب أخفّ ضررًا من قمع القوّة المهيّجة ، والعاقل من يقابلها بالملاينة والملاطفة والمباحثة فى أسبابها حتى يهدأ الخاطر الثائر . روى أنّ ابن الراوندىّ قال

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبُهُ ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة ... وصيَّر العالِم النحرير زنديقا

فهاج لسماعهما أحد الحمقى ، واستفظع صدورهما من عالِم دينىّ وهمّ بقتله ، ثمضى قُدُماً إلى مصر وقابل ابن الراوندىّ عرضا ، وكاشفه بجلىّ الأمر ، فرأى ابن الراوندىّ من الحكمة أن يتنكّر ، ملتمساً له عذرا فى هـذا التعصّب الذى هو من بلايا الجهل . ثمّ أخذ يستطلع رأيه فيما اعتزم عليـه ، ويحادثه فى شئون الحياة المعقّدة ، ويطلعه على عجائب الخـلّاق ، فى قسمة الأرزاق ، ويريه العالِم بائساً محروما ، والجاهل منعّماً قرير العين مخدوما . وما زال ابن الراوندىّ به حتّى أقنعه بصحّة ما سمع من الشعر فهدأ مزاجه المضطرب

وللجماعات حماسة يبدونها فى المواقف الدينيّة والوطنيّة تألّماً من شىء تستنكره ، فتهيّج أعصابها ويتولّاها اليأس ، وتسير فى السبل هاتفة صارخة . فإذا أرغمها حفّاظ الأمن على التزام السكينة اعتقدت أنّها صودرت فى شعورها ، فيزداد ألمها ، ويقودها الانفعال النفسىّ إلى أحرج المواقف . ولا شىء أجدى من مقابلتها باللين والحلم وسماحة الخلق . ولا علاج أنجع للغضبان من تهدئة ثائره وتطييب خاطره .

والطفل النشيط يؤذيه الفراغ ، فيتسلّط على أهله ، ويكدّر عليهم صفاء عيشهم ، ويستنزف ما يسلبه من أموالهم . فعلى المؤدّب أن يشغل فكره وقت الفسحة والعمل بالمسلّيات ، ليحول ذلك بينه وبين تدبير الفساد

ونفس العصبيّين تجيش عند الحوادث ، فتسهّل لهم ارتكاب الجناية تصريفاً لقوّة القهر فترخص فى نظرها الحياة ، حتّى لقد فشا داء الانتحار يستشفى به المصاب بآلام النيظ ، فيتعاطى السمّ أو يهوِى من المرتفعات ، أو يجنى على نفسه بالحرق أو الغرق . والانتحار التدريجىّ أكثر فتكا ، لأنّه استسلام إلى الأهواء التى هى حبائل الشيطان ، والتمادى يريح أعصاب العاكفين عليها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

لو بحثت لعلمت أنّ الغضب الجامح هو الداء العضال الذى يزحزح العقل عن أطواره ويزعزع أركان الجسم . وعلاجه معاملة الغضبان باللين ، وتوصيته بالصبر على احتمال المكاره ، وقلّما أفادت النصيحة متى توافرت أسباب القوّة ، ولذلك توجّهت عناية المؤدّبين إلى توزيع هذه القوّة فى غير وجوه الضرر . فكّروا فى ضروب اللعب التى سنبسط الكلام عليها فيما بعد لتوجيه قوّة اللاعبين إلى غرض مأمون العاقبة ، وفكّروا فى الملاكمة وكسَوا جُمْع الكفّ بوسائد مرنة تخفّف وقع الضرب بها ، وفكّروا فى المغالبة بالعصىّ والرماح المغمودة النصول ، لتمرين اليد ودفع الخطر ، وفكّروا فى نظام الكشف الذى راج سوقه بين النشء للتدريب على الخشونة والجراءة وعيشة الخلاء ، استكثارًا لأسباب الصحّة ، واستدرارًا للخير واجتنابًا للشرّ .

ما أسعد الأمم التى تضافرت أفرادها على مغالبة القوى الطبيعية ، فقد ذلّلوا تيّارات الهواء والماء واستخلصوا منها قوّة عنيفة ، وجمعوا

كثيرًا من أشعّة الشمس فى بؤرة فاستحوذوا على حرارة قويّة ، وافتنّوا فى استخدام الكهربائيّة والقوّة البخاريّة ، ولا يزال الفكر الإنسانىّ يجول فى فضاء العالم منقّبًا عن كنوزه المستورة وقواه الدفينة

---

٦) غريزة المحاكاة

لكلّ حيوان استعداد خاصّ فى المحاكاة ، فالفرد يوزعه استعداده أن يحاكى الحركات البدنيّة ، والببغاء تحاكى النطق . وبالمحاكاة استعان العلماء فعلّموا الطيور المغرّدة ما شاءوا من النغمات ، فوضعوها بحيث ترى صورتها فى مرآة ، ووضعوا وراء المرآة آلة صدّاحة ، فيخيّل إلى الطائر عند عزفها أنّ طائرًا آخر يغنّى فيَهُمّ بمحاكاته . والحمام — وقد اعتاد تناول الحَبّ الصغير حتّى إنّه لم يعد قادرًا على ازدراد الحَبّ الكبير ولو أضناه الجوع — يجتمع مع الحمام الذى يتغذّى بالحَبّ الكبير فيندفع إلى محاكاته ، وهذا سرّ محاكاة النظير .

إنّ الإنسان فى طوره الأوّل حاكى الطبيعة والحيوان فيما سمع ورأى وصنع ، فسمّى طائفة من الأفعال بأصواتها ، وقد ورد بين ألفاظ اللغة العربيّة حفيف الشجر ، وخشخشة الثوب الجديد ، وقعقعة السلاح ، وصلصلة الحديد ، وخرير الماء ، وصرير القلم ، وهرير الكلب ، ودقّ الباب ، وطنين الذباب ، وشخب اللبن عند حلبه ، وكذلك بين ألفاظ اللغة الانجليزيّة هابل بابل Hubble - Bubble للنرجيلة ،

وتريك تراك Trick - Truck للنرد وهيكاپ Hiccough للفواق [1]
حاكى المغاور فبنى البيوت ، ورأى الزنبار والهدهد يجصصان عِشاشهما فطلى بيته بالجصّ ، ورأى الذئب يقع فى الغنم فتعلّم الصيد ، وحاكى الليف فنسج الشباك على منواله ، وشاهد الحَبَّة تسقط على الأرض فتنبت وتنمو حتّى تصير دوحة ، فحاكاها بالزراعة . وحاكى زخارف الطبيعة فنقش على الخشب والحجر ماراقه من النبات والزهر والحيوان والإنسان . وحاكى تغريد البلبل فغنّى . وحاكى أخاه الإنسان فى الترتيل والشعر والخطابة والملبس والصناعة وهكذا .

المحاكاة والحاجة اليها

يبتدئ الطفل بالمحاكاة فى الشهر الرابع من عمره ، ويزداد بها غراماً كلّما تقدّمت سنّه لهيامه بتعرُّف الموجودات التى يجهلها ، وسبيله الواحدة لذلك هى جنوحه لمحاكاة النظراء ، ومحاكاةِ كلّ ماله تأثير فى نفسه . يرى الفرس تعدو فتدفعه غريزة المحاكاة إلى ركوب عصاه . ويرى القطار فيجتمع مع إخوانه ويحاكونه .

ولحاسّتى السمع والإبصار مجال عظيم فى المحاكاة ، لأنّهما ينقلان إلى المخّ أثر المحسّات ذات الوقع الحسن فيحاكيها بصورة طبق الأصل . ومن هذا تعلم ضعف الأوامر المعنويّة لصعوبة محاكاتها على ذهن الأطفال .

---

(١) ريح تشخص من الصدر

اقتفاء أثر الصالحين والولوع به

واعلم أنّ ضرورة الاجتماع تلجئ الإنسان إلى اقتفاء أثر سلفه ومعاشريه ومحاكاتهم ليحافظ على العادات القوميّة ، وليتآزر بهم فى قضاء مصالحه . كان عمر بن الخطاب ورعا يحب المتقشّفين ، استدعى يوماً أبا موسى الأشعرىّ ومن يليه من العمّال للمثول فى حضرته ، فانطلق أحدهم وهو الربيع بن زياد الحارثىّ إلى مولى عمر ، وسأله عما يروج عند عمر وينفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش ، فمضى ولبس جبّة صوف وعمامة دسماء[1] وخفّاً مطابقا ، وحضر بين يدى عمر فى جملة العمّال . فصوّب عمر نظره وصعّده فلم يقع إلّا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثمّ أوصى أبا موسى الأشعرىّ به . فهذه الخطوة ما جاءت إلّا من رائع تأثير المحاكاة ، وقد ورد « الأرواح جنود مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وفى المثل « لولا الوئام ، لهلك الأنام »

الجمود

وإنّ أدنى أنواع المحاكاة ما حوفظ به على الأصل بدون تصرّف ولا إتقان على النحو الذى يتّبعه صنّاع الفخّار فى قنا . عادة ألفتها الأمم الساذجة ووضعتها موضع الاحترام . زرت مصنعهم يوما ، ولمّا رأى بعضهم أن الشك داخلنى فى مقدرتهم الصناعيّة عمد إلى طين وسألنى أن أقترح شيئاً يصنعه ، ثمّ انبرى فصنع طستاً وإبريقاً يجمعان إلى دقّة الصنعة رقّة الذوق . ثمّ أعادهما إلى عجين كما كان ، ولم يرد أن يدخل على ما ورثه من أسلافه شيئاً خوفاً عليه ، كأنّ بدعة الصناعة

(١) ذات لون مغبر

من البدع الدينيَّة التى لا يسوغ إدخال التعديل عليها .

وإذا وصفنا المحاكاة بأنَّها من دعائم الحضارة وجب علينا أن نفسّر ذلك بضرورة الاطّلاع على المحاكَى وبحثه وتمحيص أدلّته ، لتندفع النفس إلى محاكاته بوازع صادق . والمحاكاة روح تُوثّق الرابطة بين الفرع وأصله ، ومن هنا نشأت محبَّة المحافظة على القديم . وقد تغلو الامّة فى احترام قديمها فتقتصر على ما أوصلته إليها الوراثة ، وتغضُّ الطرف عن التغيير الذى تدعو إليه الطبيعة وأطوارها ، فتكسد بضاعتها ، وتبور صناعتها ، ويسُلُّ عليها الدهر سيف الحرمان ، وتبطُش بها عوامل الفناء .

ومن أمثلة الجمود والغلوّ فى حبّ القديم والتحيُّز لمذهب « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ما روىَ أنّ أحد الهنود الذين يحرّمون قتل الحيوان وأكله ، قد باحثه عالم ألمانىّ وأراه بالعيان نقطة من الماء الذى يشربه تحت المنظار ، فتخيَّلها لكبرها غديراً من الماء ، وقد اكتظّ بالهوامّ السابحة فيه ، فلم يقتنع الهندىّ بما رأى بعينيه ، وسخر بقول هذا العالم ، وكسر المنظار إصرارًا على الباطل وعنادًا للحق .

وقال كمبيرى [1] : « إنّ طالباً تعلّم فى أديار القرون الوسطى وصل إلى سمعه كشف كلَف معتم فى كرة الشمس فدهش وقال : علم الله لو أنك قرأت بإمعان كتب أرسطو لوجدته وصف الشمس بأنَّها كوكب لا يعترى نوره ذبول . فما أبعد مسافةَ الخلف بين هذه

(١) كمبيرى من رجال الحركة العلمية بفرنسا الآن

الحقيقة ومزاعم المستكشفين : عليهم أن ينظّفوا عدسة المِنظار من أثر الغبار، ثمّ ينعموا النظر لعلّهم يبصرون الحقّ جليًّا . أمّا إذا أخطأ بصرهم وشاهدوا ما شاهدوه أوّلا ، فليعلموا أنّ الكَلَف الذى رأوه إنّما هو سحابة تغشّى أعينهم » . فما بال طالب العلم فى الجيل الثانى عشر من الميلاد قد تمسّك بقول أرسطو نابغة القرن الرابع قبل الميلاد ، ولم يحفِل بتجارب ستة عشر جيلا ترقّى فى غضونها العقل الإنسانىّ ، وتقدّم العلم ، وكشفت التجارب عن حقائق كانت مستورة ! ما باله نظر إلى المشاهد ومحّصها بعقل غيره ، وأهمل عقله من النظر ، وعاقته الثقة بالمتقدّمين عن استجلاء الحقائق ، ولو كانت أعيننا تراها ، والمراصد الفلكيّة تساعدها ! أليس يدلّ ذلك على أنّه اكتفى من البحث بالمحاكاة العمياء ، وقضى على مواهبه ، وعطّلها من التنقيب .

تأثير المثال الحسن

وللمثال الحسن تأثير رائع فى تثقيف الطباع ، فالطفل الذى ينشأ بين أبوين فاضلين يحاكيهما ، ويقتبس منهما لطيف القول ودقّة الذوق وحسن الصنع وكمال البِزّة ، وهو بعينه إذا عاشر منحطّى الأخلاق سرت إليه روح العدوى من طريق المحاكاة . نعم للقدوة الصالحة تأثير مجيد فى النفوس ، ألم ترَ أنّها نقلت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من رعاة أغنام إلى ساسة عظام ، رفعوا منار العدل ، ونصروا الحقّ ، وأحيوا موات العلم ، وفجّروا ينابيع الثروة . وممّا روى أنّ جند واشنتون رئيس الممالك المتّحدة افتتنوا به ، فتفتّحت لهم أكمام الفتوح . ولمّا قام نذير الحرب بين الممالك المتّحدة وفرنسا ، استعار خلفه لنفسه

اسم واشنتون وجرى على سننه ، فسرت فى العروق روح الحميّة والإقدام ، وكان النصر حليف جيشه .

التنويم المغناطيسىُّ — الاستهواء — يوقظ غريزة المحاكاة من سباتها فيخضع المنوَّم لإرادة المنوِّم ، ويطيعه بلا شعور ، ويحاكيه بلا تبصُّر ؛ وحوادث التحقيق الجنائىّ برَّأت شركاء بعض المجرمين ، لأنهم كانوا عند اقتراف الجرائم مسلوبى الإرادة .

لا نريد أن يحترف المعلّم بمهنة الاستهواء ، وإنَّما نريد أن يكون كبير النفس ، حسن الطويَّة ، نافذ الرأى ، قدوة فى القول والفعل . ولعلّك عرفت قصّة الأعرابيَّين النجديَّين نابر ودابر . كان نابر صالحا تقيّا ، وكان دابر شرّيرًا سمجا ، فسنحت الفرص يومًا لنابر أن يركب جواده وكان عزيزًا لديه ، فمرَّ فى طريقه على دابر وقد لبس ثياب الضعف والمسكنة ، فلمَّا رآه رقَّ لحاله وترجَّل وطلب إليه أن يركب الجواد . وعند ما تسلَّم دابر زمامه — وكانت نفسه تتطلَّع من قبل إلى استلابه — ساقه مسرعا ، تاركًا مالكه يتفطَّر فؤاده حزنًا على جواده المغصوب ، وجميله المسلوب ؛ فناداه نابر « ألا فاقترب منّى — أيُّها الأخ — ولا أريد أن أشقَّ عليك باسترداد جوادى ، غير أنّ عندى لك نصيحة ولا إخالك إلّا عاملاً بها ، إنّى أرجو ألّا تذكر لأحد ما فعلت معى ، خشية أن تشحَّ يد الكرماء ، عن بذل العطاء ، إذا هم سمعوا هذه الإساءة إزاء فعل الجميل » ؛ هنا لك ضُيِّق دابر من هول

جريرته ، وندم على ما فرط منه ، وردّ إلى صاحبه جواده ، فما أبلغ تأثير هذا الكريم ، فى نفس اللئيم !

ولنا من أبى نصر الفارابىّ مثال حسن يدلنا على ما كان له من روعة التأثير فى عقول جلسائه . فقد نبغ فى درس اللغات حتّى عرف منها أكثر من سبعين لسانا ، وزاد فعرف كيف يخلب عقول الناس ويملك زمام عواطفهم بإرادة صادقة وبراعة فى إيقاع الألحان الموسيقيّة . حضر يوماً مجلس سيف الدولة وكان المغنّون يعزفون فخطّأهم الفارابىّ ، ثمّ اجترأ وتناول المِعْزَف وركّب عيدانه وعزف فضحك الحاضرون جميعهم ، ثمّ ركّبها تركيباً آخر وعزف بها فبكوا جميعا ، ثمّ ركّبها تركيباً ثالثاً وعزف فناموا حتّى البوّاب ثمّ تركهم وانصرف .

المحاكاة فى الرسم

ويدلّك على حبّ روسّو للطبيعة المجرّدة من زخارف الصناعة أنّه كلّف تلميذه أن يحاكيها بالتصوير من دون نظر إلى المبادئ التى وضعها علماء الفنّ . وهؤلاء يفضّلون البدء بمحاكاة البسيط من الأمور كالخطّ المستقيم وأوضاعه وأشكاله ، حتّى إذا تمّ له ذلك ركّب منه ما شاء من بدائع الكون . وأدنى درجات الرسم ما جاء من باب المحاكاة البحتة بحيث لا يسمح للطفل أن يزيد عليه شيئا ، ليختبر جولان نظره ، واعتدادَه بجعل الصورة مطابقة للاصل ، واعتمادَه على تمرين العين على النِسَب بين بعض الأجزاء وبعضها وبينها وبين الكلّ . وتلى تلك درجة يراد بها تمرين الحافظة والذاكرة ، كأن تعرض الشكل على الطفل ، حتّى إذا شبعت منه نفسه لفت عنه

نظره ، وانطلق يجمع فى رسمه ماعسى أن يكون وضعَه وشكله ، وهذه الدرجة تختلف باختلاف قدرة ملاحظته على ضبط المرئيات .

فى ليلة عاشوراء اعتاد الفرس أن يحتفلوا بموكب لهم فى مصر حدادًا على وفاة الحسين بن علىّ . وفى أثناء مرورى شاهدت رجلاً يجول بين المارّة شاخص العينين ، مستطلعاً حركات الواقفين وأزياءهم ، مترقباً أوضاع المشاعل التى يسير القوم فى ضوئها ، وإذا هو مصوّر توجّهت نفسه إلى درس عناصر هذا المشهد ، ليفرغه فى قالب الرسم من حافظته .

وفوق هذه الدرجة مرتبةٌ من أحرزها فقد برع وعُدّ من كبار المصوّرين ، وعماد هذه المرتبة على قدرة الخيال على تصوير المعانى وإلباسها ثوباً حسيًّا يوحى إلى الذوق اختيار ما يكون له حسن الوقع وعميق الأثر ، فتراه يقرأ الحادثة التاريخيّة ، ثمّ يرقمها على القرطاس برسم يشفّ عن معانيها ، ويجمع من رموزها طُرَفاً لا يستعصى على اللبيب فهمها . يستطيع الرسّام والحفّار تصوير المعانى الحقيقيّة والخياليّة كما يستطيع الكاتب أن يصوّرها ، غير أنّ الأوّلين يمتازان بأنّ لغتهما يفهمها الناس على السواء . ومن بارع الخيال الذى ينمّ عن الحقيقة أنّ نائماً صحا فى باكورة يوم صافى الأديم عليل النسيم ، فاختار لهذا المعنى تمثالاً نقشه على صورة صبيّ غائص فى نوم عميق . وابتكر مصوّر مشهداً للبؤس فتخيّل قافلة تسير فى البيداء وقد اشتدّ المرض برجل منها فتخلّف عنها . غير أنّ رفقاءه قبل أن يتركوه قيّدوا جمله

بجواره ، فلم يلبث الرجل أن مات ، أمّا الجمل فقد تقطّعت أحشاؤه من ألم الجوع والعطش واشتداد الحرّ ، وأقبلت إليه ضوارى الوحش وكواسر الطير وصارت تتدانى منه كلّما لحظت فيه الضعف ، والجمل المسكين ينظر إليها نظرة الخائف ، ويستسلم لبطشها استسلام الضعيف ، تذوب نفسه حسرات عند ما يلوى رقبته ليراقبها ولا يستطيع دفع الشرّ . كان تيمورلنك أعور أعرج ، وكلّما رأى صورته على حقيقتها استشاط غيظًا وأوقع الأذى براسمها ، فرسمه مصوّر متهيّئًا للصيد ، جالسًا على إحدى ركبتيه ، مصوّبًا بندقيّته ، ناظرًا إلى الهدف بعين واحدة ، فكانت براعته فى اختيار هذه الفرصة من دواعى استحسان الصورة بوضعها الحقيقىّ

المحاكاة فى صناعة الانشاء

وقد طالبَ معلّم الإنشاء أن يحاكى الطفل النماذج الأدبيّة بين منثور ومنظوم ، يحفظها ويستذكرها ويرتّلها ويمثّلها محاكيًا واضعها ؛ ثمّ ينتقل به درجة فيطالبه بمحاكاة معناها متصرّفًا فى ألفاظها وتراكيبها بنثر منظومها أو نظم منثورها . ومن مباشرة هذه المعانى وإبداء القدرة على أدائها والتصرّف فيها على النهج الذى يرتضيه البلغاء ولا ينفر منه الأدباء ، يحصل للخاطر لفاح ، وتتربّى عنده ملكة الإنشاء ، وبها يسترسل فى الأغراض ، وتأتى إليه المعانى متدفّقة بدون تكلّف .

المحاكاة فى اللغة

والغيور على نشر اللغة العربيّة يذيع استعمال المفردات الفصيحة ، والأساليب الصحيحة ، بطرق المحاكاة اللفظيّة والكتابيّة ، وبعض الناس أقدر من بعض على ولوج سبل التأثير ؛ وليس بعجيب أن يتهيّأ

لأحدهم أسلوب دون أسلوب فلان مع كثرة ما يحاول من محاكاته ، لأنّه يحمل بين جنبيه سرّ هذا الإخفاق . والإنسان بعد الإمعان يستطيع أن يستوضح أوصاف الكاتب من أسلوب كتابته ، حتّى لقد بلغ الحدُّ عند بعضهم من شدّة حذقه واتّساع نطاق اطّلاعه أن يميّز أسلوب الكتب المخرومة ويعزوها لمؤلّفيها ولا يكاد يخطئ .

متى تحصل المحاكاة ؟

إنّ الجذل والسرور من الشيء يدفعان النفس إلى محاكاته ، ومتى وصلت صورته إلى العقل نهض للموازنة بين النموذج وما تؤدّيه الأعضاء ، والتمرين كفيل باستيفاء ما بينهما من الشبه .

وقد يكون وازع المحاكاة محض الاحترام ، إذا بلغ النموذج من الكمال مرتبة الملوك والقوّاد العظام ، يفهمان هذا فيطرقان سبل الإصلاح متّخذَين من قوّة المحاكاة عضداً قويما ، وسنداً عظيما ، قيل إنّه جاء الملكةَ الكسندرة (ملكةَ الانجليز) وفد من الفلاحين يستغيثون من ضرر دُوَيبّة تختفي في الأرض ، وتتغذّى بجذور النبات فيذبل . هنالك أمرت الملكة بصنع مِعطف لها من فرو هذه الدويبّة ، وما رأته الأوانس دثاراً للملكة حتّى تنافَسْنَ في لبسه ، وتنافس الصيّادون في صيده ، وكانت محاكاتهنّ للملكة سبباً لقطع دابر هذا الحيوان ؛ وذوق الملكة على كلّ حال ، هو نموذج الجمال بدون جدال ، والناس لتعلّقهم بالعظماء يحتذونهم في اللبس والسير والحديث والكتابة .

محاكاة المعلم

وللمعلّم الكفء فى نفس تلاميذه هذه المنزلة ، يحاكونه فى كلّ عمل يفعله لاعتقادهم أنّه لا يختار إلّا الأصلح ؛ إذن يَحقّ له أن يتجنّب الشبهات التى ربّما أوّلها المتساهلون ، وحاكوه فيها فيضلّون . تأمّل تحرّز سقراط قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه ، وقد أبى قبول نصيحة صديق له بالهرب من السجن ، والنجاة بحياته إلى حيث يعيش عيشة سعيدة ؛ نفر من هذه النصيحة خوفاً على سمعته أن تشوّهها معرّة الفرار من وجه القضاء ، وكراهةَ أن يتأوّلها أتباعه من بعده فيسوّغون الهرب لأنفسهم ويحكمون به ، ويفتحون على الأمّة من طريق المحاكاة باب الضلال والشرود .

محاكاة الطاعنين فى السن

رأى بعضهم أنّ المحاكاة يشتدّ وازعها إذا أسنّ المعلّم ، وزادته الأيّام خبرة بالأمور ، وعرك الدهر فى حالى لينه وصلابته ، واتّسع عنده أفق العلم الصحيح ، وفهم الطبع البشرىّ فى أطوار الحياة من الشبيبة إلى الكبر حتّى صار أصحّ رأيا ، وأكثر عطفا ، وأقوى حجّة ، وأرسخ فى العلم قدما ، وأمضى فى التجارب عزما . هؤلاء يعتقدون أنّ الآباء غالباً يزلّون عند تعليم أبنائهم بأنفسهم ، لما اشتمل عليه وجدان الوالد من الحنوّ ، ومطالب التعليم تستدعى الجفاء أحيانا ، أو للتسامح الذى يتوقّعه الولد متى قصّر فى أداء الواجب وخرج به العصيان عن الجادّة ، أو لأنّ فرط محبّة الوالد لولده توزعه أن يركب معه متن الشطط ، ويكلّفه ما لا يطيق غيرة عليه ، أو لأنّ الوالد لا يجرؤ أحد أن يتطاول عليه مستعيناً بالقانون فى الإضرار به إذا

هو أفرط فى عقاب ابنه .

محاكاة النظير

ورأى آخرون أنّ صغار السنّ من المعلّمين أنفذ حكما ، وأقوى فى الطفل أثرا ، وأملك لزمام إرادته ، وأكثر معرفة بميول النشء لقرب العهد بهم ؛ فإذا انصرفت همّتهم لدرسها كان نصيبهم منها أبلغ من نصيب الكهول ، وأغناهم ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التى يمتاز بها المعمّرون ؛ وأنّ مهمة التعليم فى الطور الأوّل ينبغى أن يُسَلَّم زمامها إلى النساء لما عندهنّ من العطف والصبر والقدرة على فهم أساليب الطفل وتيسير التنزّل إلى أفقه .

يطّرد هذا فى أنثى الحيوان ، فالدجاجة تلاحظ أفراخها وتلقّنها الإرشادات بقَوْقائها ، والعصفورة تعلّم صغارها الطيران بعد تكامل ريشهنّ فتخرجهنّ من العشّ ، وتطير أمامهن وتستحثّهنّ على محاكاتها ، حتّى إذا قعد بهنّ الخوف عن ذلك خفّفت لوعتهنّ وحرّضتهنّ على الطاعة بالزقزقة أو النقر .

وللتلاميذ بعضهم فى بعض تأثير لا يستهان به ، فطن إليه أرنولد[1] فى الجيل الماضى فقرّر أنّ كبار التلاميذ يدرسون فى باكورة النهار نصيبهم من نظريّات العلم ، ثمّ يتولّون بعد ذلك تعليم الصغار من إخوانهم تطبيقاً للعلم على العمل . وسواء ألاحظ التأثير البليغ أم

(١) توماس أرنولد Arnold توفى سنة ١٨٤٢ كان ناظر مدرسة ثانوية فى انجلترا أدخل فيها ماشاء من النظام حتى ذاع صيتها . واشتهر طلاّبها بالرسوخ فى الأدب وحرّية الفكر فى المسائل الدينية والسياسية

الاقتصاد فى الإنفاق فإنّ طريقته وجدت من النفوس مكانا ، وسعى المربُّون جهدهم فى تقليل معايبها .

حدَّثنى ناظر مدرسة أنّه كان يباشر تعليم ابنه لصغر سنّه ، وكان به شفيقاً متسامحا ، ولفرط رحمته إيّاه كان ينتصر له إذا نازع غيره ، ويميل إلى جانبه تنشيطًا له ؛ فأطمعته هذه الرأفة فى الأذى والعَبَث بالحقوق . رافقه مرَّة — وقد توجَّه والده إلى صفوف التلاميذ الواقفين فى ساحة المدرسة — فرأى منظراً عجبا ، رآهم عند ماشخصوا إلى والده هدءوا وخشعوا ، ورفعوا أيديهم إلى الرءوس احتراماً له ، وتجلّت فيهم الطاعة بأجلى مظاهرها ؛ رأى الطفل هذا كلّه ، وأخذت المحاكاة تجرى مجراها ، وما لبث إلّا قليلا حتّى تغيَّرت أطواره مع أبيه ، وصار من الأخلاق على جانب عظيم ، وهـذه ثمار تأثير الشىء فى نظيره .

« إنّ الحديد بالحديد يفلح »

٧) غريزة المباراة

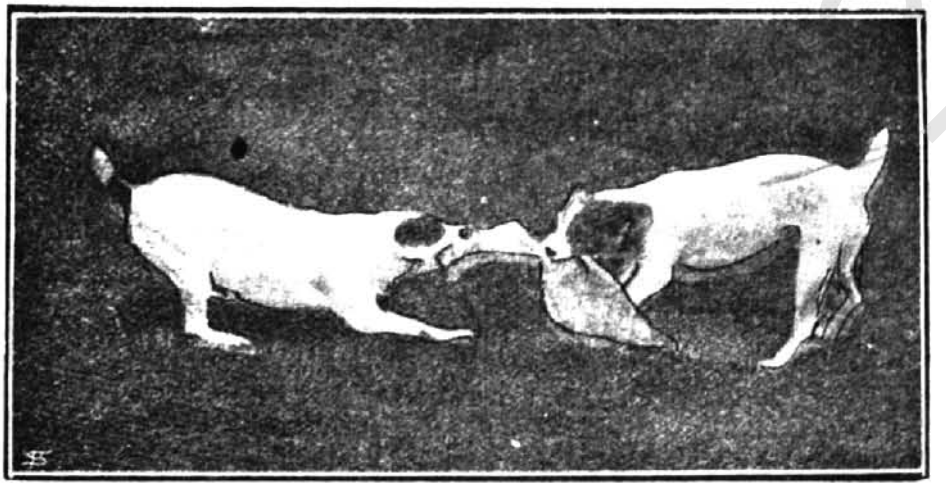

يهوى الحيوان والإنسان مباراة الأقران للفوز عليهم ، ولا يعتدُّ بما يعانيه من المشاقّ فى سبيلها . فالدابّة تسير وحدها وتجهدها المسافة القصيرة ، حتّى إذا سايرت غيرها من الدوابّ تحمّلت ما لا طاقة لها به من الجهد ونسيت آلامه رغبة فى المباراة . بيد أنّ أصائل الجياد لا همّ لها إلّا أن تنطلق كالسهم إلى الرميّة سواء أسارت وحدها أم سايرت غيرها ، كأنّها تجرّد من شخصها مناظرًا تباريه على سبيل الخيال . قال المعرّىُّ :

ولمّا لم يسابقهنّ شىء من الحيوان سابقن الظلالا

والطفل كثيرًا ما يتّفق هو وإخوانه على المباراة عَدْوًا فى ساحة المدرسة ، ثمّ ينسى حدود قدرته على الجرى ، ويصرف قوّته كلّها فى مبدأ الشوط ، فيفتر نشاطه وتخور قواه قبل الوصول إلى قصب السبق « إنّ المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى » . وقد تخونه نفسه فتُنزله فى ميدان المباراة قبل موازنة قوّته بقوّة نظرائه

وإنّ من حارب من لا يقوى لحربه جرّ إليه البلوى

وكم ينهض الإنسان وحده لإدراك أمنيّة تموج فى صدره ويثوب منها بصفقة المغبون ، فلا يحزن على فشله حزنه إذا بارى غيره وفشل فى إدراك غرضه .

الحاجة الى المباراة

أصبحت المنافسة أساسًا لجلائل الأعمال ، ومفتاحًا لأبواب

المعالى ، ولا يكاد يخلو منها ميدان . تطرح المسائل على بساط البحث فيتبارى فى حلّها الأكفاء ، يقيم أحدهم الحجّة على دعواه ، وينقضه الآخر بالدليل ، ولا يزالون فى أخذ وردّ وجهاد وجلاد ، حتّى تنجلى عن سماء الحقيقة غيوم الشُبَه . يقرأ الناقدون المؤلّف وينعمون النظر فى قضاياه ، ويسبرون غور علاقتها بالحقائق ، ولا ينتهون منه حتّى يكونوا قد قتلوها بحثاً وتمحيصاً ، وميّزوا صوابها من خطئها « والحقيقة بنت البحث » . والمصانع تتبارى فى إجادة السلع وتخفيض أثمانها فيزداد المبدعون بيعاً والمُعْجَبُون بها شراء ، كأنّ الهمم مخبوءة فى الصدور تظهرها المباراة وتَشْحَذها المشاركة ، ولهذا رجحت كفّة التعليم فى المدارس عليها فى المنازل .

آراء المربين فى غريزة المباراة

رأى اليسوعيين فى المباراة

١) حتّم اليسوعيّون استعمال المباراة لما فيها من تقويم مُعْوَجّ الفطرة ، وضربوا صفحاً عما تجرّه من عوامل الحقد ، وقطع أواصر الإخاء . وغلوا فأباحوا من أجلها التجسّس بل جعلوه داخلاً فى مضمون المباراة ، لأنّ التلاميذ أعرف من غيرهم بما يفشو بينهم من الرذائل ، فإذا تسابقوا فى إظهارها للمعلّمين تسنّى لأولى الشأن أن يعالجوها . وقد شدّدوا النكير فى العقاب البدنىّ تشنيعاً للخطيئة ، حتّى كان لهم فى المدرسة جلّاد لإنفاذ العقوبة .

رأى الأمريكيين في المباراة

٢) ورأى الأمريكيُّون نقيض ما قرّر اليسوعيُّون ، وعارضوا مذهبهم مصرّحين بأنّ الفطرة خير محض على النهج الذى شرحناه فى هذا الكتاب : رأوا أنّ المباراة تنطوى على رذيلة الأثَرَة وعلى بغض القرناء ، وليس بين المتنافسين والمتحاسدين إلّا حجاب رقيق. يعرف هذا من قصّر به السعى عن الفوز فى ميدان المسابقة ، فإنّه يحمل فى نفسه الضغينة لمنافسه ، ويودُّ لو تبطش به المكاره ليخلو له الجوُّ ، معتقداً أنّ الغاية تبرّر الوَساطة . وقد بلغت كراهتهم فيها أن جرّدوا منها نظام المدارس ، فمنعوا الدرجات وتقدير المكافآت ، وقرّروا من مذهب الاشتراكيّة : أنّ الناس كلّهم سواسية .

قد اتّبع مذهبَهم هذا أحرارُ المصريّين إذ نادوا بإلغاء الرتب والأوسمة فقد قال زعيمهم [1] : « كفى الناس أن يكونوا مختلفين فى الصور الطبيعيَّة والمواهب المغرِبَة ، فليس من حسن تدبير الأمم أن نزيد هذا الخلاف بأيدينا ، ونوسّع دائرة الفروق فيما بيننا . إنّها (الحكومات الملكيَّة) تفرّق بين الناس فى معنى الشرف ، مع أنّه يكفى فى أن يكون الإنسان شريفاً ألّا يكون قد ارتكب فاحشة مبيِّنة . تأتى هذه الحكومات إلى الشرف الذى هو أظهر معنى استوى الناس فيه ، فتجعله طبقات لا لعلّة ظاهرة ، ولكن لمجرّد الجاذبيّة ، كأنّها تعمل على التفريق بين المتشابهين ، فتعطى زيداً رتبة تكبّر بها اسمه ونفسه ، وتعطى عمرًا نَوْطًا يزيّن به صدره ويعلى

(١) أحمد لطفى السيد بك فى الجريدة يوم ٣٠ مارس سنة ١٩١١

قدره ؛ وتحرم الثالث كلّ ذلك . فلا ندرى أنشكو الطبيعة فى تفضيلها بعضاً على بعض بالخلقة والمواهب والميول ؟ أم نشكو الحكومة لتفضيلها بعضاً على بعض بالألقاب والأنواط ؟ أم نشكو الحظّ الإنسانىّ الذى جعلنا تحت رحمة الطبيعة مرّة ، وتحت رحمة الحكومة مرّة أخرى ؟ كلتاهما تثمّر شهواتنا ، وتجرّئنا من جهتنا الضعيفة إلى حيث تُفسد علينا أخلاقنا . وتنغّص علينا عيشتنا ، وتجعلنا دائماً كارهين لهذا الوجود المحبوب » .

هذان رأيان إذا أنعمت النظر فيهما وجدتهما جاوزا حدّ الاعتدال ؛ غلا المذهب الأوّل فى جعل المباراة عماد الفضائل ، وأفرط الثانى فى اعتبار المباراة ذريعة الرذائل ؛ والحقيقة أنّ المباراة ككلّ شىء لها فضائل ومثالب ، فهى إذا أحسنّا استعمالها بشير السعادة ، وإذا تغلغلنا فيها فخرجنا عن الجادّة كانت نذير الشقاء وعامل التفريق ؛ والعاقل يجعلها كالنار تفيده فى الدفء والطبخ إذا أوقدها بحكمة ، وتحدث لهيبا وحريقا إذا أشعلها ولم يُعْنَ بالاحتراس منها ؛ أو كحرارة القلب إذا اعتدلت حفظت للجسم الصحّة ، وإذا زادت صارت حُمّى تَنْهك القوى وتُبيد الحياة .

المكافآت

ولا يصحّ أن نقرّر هنا مذهب متطرّفى الأحرار من دون أن نردفه برأينا فى فضل المكافآت بمنح الألقاب والأوسمة ، فقد نظروا إليها بعين الكراهية ، ونفّروا النفوس منها بحجّة أنّها تهيّج شعور الفوارق بين الناس ، وتقضى على ما ينبغى أن يكونوا متخلّقين به

من وئام ، مخالفين أحكام الفطرة فى تمييز الناس بعضهم من بعض قوّة واقتدارا

إن الله تعالى اقتضت مشيئته أن يختلف الناس فى مواهبهم وأقدارهم وأرزاقهم ، فترتّب على هذا التخالف تفضيل بعضهم على بعض بحكم لا محيص عنه ، فكان منهم الأمير والحقير ، والعالم والجاهل ، والفقير والغنىّ ، والمسرف والمقتصد ، ودرجات كثيرة متوسّطة بين هذه الأطراف ، ليكمّل بذلك عمارية الكون ، ويخدم الناس بعضهم بعضاً فى شئون الاجتماع ؛ وبغير ذلك لا يستقيم عدل ، ولا تسكن ثورات ، ويقع الناس فى المشاكل ، لانعدام الوازع الذى يجعل للقوىّ سلطاناً على الضعيف . وقد ورد فى الأثر « لا تزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا » .

هؤلاء الأحرار ينازعون فى أننا نسم النابغ بسمات الفضل ، ونفاخر به ونلقّبه بلقب السادة العظماء ، ونخلع عليه رداء النبلاء ، ونزيّن صدره بوسام ليست له فى ذاته قيمة ، وإنّما قيمته فى الدلالة على ما يشير إليه من جدّ وأمانة وإخلاص . ولو أننا حرمنا النوابغ من ميزة يعرفون بها فهل يستطاع كتمان الفضل ؟ أليست للفضائل ألسنة فصيحة ناطقة يفهمها الأذكياء ؟ وأيّة طريقة تتّبع لتسجيل هذه الفضائل فى بطون التاريخ والإشادة بذكر أربابها ؟

هؤلاء الأحرار غالبوا الفطرة فغلبتهم وأنستهم العمل بما يعتقدون فأصبحت تجدهم مدعوّين بالألقاب ، لابسين أوشحتها ، متنافسين

فى التحلّى بها ، متطلّعين إلى المزيد منها ، مستنكرين على الزعانف والجبناء والبخلاء أن يقفوا فى مستوى الكبراء والشجعان والأسخياء. فإذا كانوا فى هـذه العقيدة قد جاروا الأمريكيّين فى نبذ الرتب والأوسمة ، فهلّا سمعوا أنّ الأمريكيّين أنشئوا الآن نجمة ينعمون بها على الضبّاط والجند ؟ إنّه لا معـنى لإغفال المكافأة وغمط فضلها فى تشجيع النفوس ، وإذا لم تقدّر بها الكفايات ضاعت من بين أيدينا العوامل التى تستحثّ القرائح وتذكى الهمم . ولا تكون المكافأة صادقة إلّا إذا وافقت مزاج الشخص المنعم بها عليه ولم تتنافر مع شئونه المعاشيّة . فمكافأة الغيور الفقير برتبـة ربّما تكون سبباً فى انقباض صدره فيجرؤ على رفضها غـير ملوم ، فقد سمعنا عن عظيم رُشّح لرتبة رفيعة فاعتذر عن قبولها ، لعـدم الاستطاعة على النهوض بأعبائهـا ، فقد تلزمه العادة القوميّـة حينئذ أن يقبع فى منزله ، وأن يتحشّم فى مجلسه وحديثه ومطعمه وملبسه ، وهذا يضيّق عليه مسالك الحرّيّة النفسيحة . ويغلق عليه أبواب الراحة والطمأنينة . كم يكون هذا العظيم سعيداً هنىء البال لو زيد راتبه أو نفح ببدرات المـال على النهج الذى ارتأته الحكومة صواباً بإسـداء ثلاثة آلاف جنيه للرحّالة المصرىّ أحمد حسنين بك ، تقديرًا للجهود المشكورة التى تجشّمها لارتياد صحراء لوبيا ، وقد كانت من قبل معدودة من بين مجاهل إفريقيّة ، ويغلب على الظنّ أنّه لولا هـذه الرعاية ما كان فى الإمكان التعرّض لمخاطر تلك الرحلة .

غير أننا لا ننكر ما تحدثه المكافأة فى ذوى النفوس الصغيرة من العجب والصلف والكبرياء والغرور ، فيشمخون بأنوفهم على إخوانهم ، ولا تطيب حالهم إلّا إذا تحشّم الجُلّاس فى حضرتهم ، وقرنوا أسماءهم بألقاب العزّة والعظمة ، وهؤلاء لا يصحّ أن يبنى على أحوالهم حكم متين .

أما ذوو النفوس الكبيرة فيزدادون بالنعمة عطفاً وتواضعا ، ولا تزيدهم الرتبة أو الأوسمة إلا اعتقاداً بأنهم نالوها جزاءً على سموّ أخلاقهم وطيب طباعهم فيدفعهم ذلك إلى التوغّل فى الكمال .

رأى روسو فى المباراة

٣) رأى روسّو أنّ المنافسة تُمدح وتذمّ من وجهين : فتُمدح لأنّها تدفع إلى الجهاد فى ميدان الحياة ، وتذمّ لأنّها تحدث الجفاء والقطيعة ، وتعكّر صفاء الولاء بين الإخوان . والفضائل كلّها أوساط بين الأطراف .

طرق روسّو باب المباراة من وجهين ، مع العلم بأنّه فضّل التعليم الفردىّ على التعليم المدرسىّ .

أوّلاً — حثّ « إميل » على مباراة المعلّم ، على شرط أن يتنزّل المعلّم إلى درجة تزيد قليلاً على الأفق المناسب للتلميذ ، ولهذه الزيادة يستنهضه بالمنافسة فى أمر هو داخل فى حدود قدرته . وأنت خبير أنّ المبتدئ يفرح إذا رأى الفرق بينه وبين معلّمه يسيرا ، وينقبض يأسا ، ويزيده الخيال تعسا ، إذا رأى معلّمه أسبق منه بمراحل ، ومن نتائج هذا اليأس نفار الذهن من المحاكاة

عهدنا الطفل يَصْمُت أحياناً عن الإجابة عن سؤال يلقى عليه ؛ ولعلّ هـذا قد نشأ من خوفه التعثُّر فى أذيال الخطأ ، عارفاً غزير علم معلّمه ، معتقداً أنّه منزّه عن الغلطات كثير الحسنات . فإذا رأى معلّمه أخطأ مثله ، ثمّ عاد إلى خطئه فأصلحه ، واسترشد برأى العقلاء لرتق الفتق ، وتلمُّس مواضع الصواب ، أفتظنُّ أنّ خوفه يعاوده ؟ كلّا . بل يظهر فيه مقدار كبير من الإقدام والصراحة والاجتهاد .

وثانياً — حثّ إميل على أن يوازن بين أعمال يومه وأمسه ، متوقّعاً أن يكون عمل اليوم أصلح من عمل الأمس ، لانّه اليوم أكبر سنّا ، وأغزر عقلا ، وأشدُّ مرونة وقدرة على تنفيذ الأمور ، افرض أنّ الطفل رسم صورة ثمّ ألزمه المعلّم بالاحتفاظ بها ، ووضعها على الجدار ، راقماً عليها تاريخ البدء والتمام ، فإنّه يرى من مجموع أمثال هذه الصورة عقداً مرتّباً على حسب ترتيب أزمنتها ، وبالحَرَى مرتّباً بحسب الجودة التى يجود بها تقادم الزمن والتمرين والتهذيب . ولا يكاد يطّلع عليها صانعها حتّى يراها متدرّجة فى سلّم الرقىّ ، متقدّمة فى طريق البراعة ، بعيدة عن مخازى الحقد ، وقد سبقه إلى هـذا المعنى رجلان : هما أعشى همدان والمعرّىُّ قال الأوّل :

رأيتك أمس خيرَ بنى لؤَىّ ... وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقال الثانى : —

ينافس يومى فىّ أمسى تشرُّفا ... وتحسُدُ أسحارى علىّ الأصائل

رأي كانت فيها

٤) ورأى « كانت » أنّ أحسن ما تكون المنافسة إذا توجّهت عزيمة المتنافسين إلى الغاية دون الوسائل ، فالحقد المسترذل إنّما يعترض المنافس وهو سارٍ فى طريقه إلى الغاية ، فإذا قطع الطريق إليها بعيداً عن الضغينة ، ناظرًا إلى نور الحقائق الوضّاء ، فقد حمد السرى .

وكأنّى بعقلاء المؤلّفين وأهل الابتداع يمدّون أيديهم لمصافحة من ينقدون أعمالهم ويميّزون غثّها من سمينها . ونحن إذا سوّغنا للناقد تقرير الحقّ حبًّا فى الحقّ ، فلا نسوّغ له التشهير بالزلّة والطعن فى قائلها ، فإنّه لا يدرى كم عانى من المتاعب فى التأليف والابتداع . والعمل الإنسانىّ — مهما بلغ من التدقيق — عرضة للخطأ . « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »

فوائد المباراة

الأمريكيّون لم يهتمّوا بفوائد المباراة للقاعدة الأصوليّة : « درء المضارّ مقدّم على جلب المنافع » ، وإلّا فأىّ باب من أبواب الحياة يستغنى عن المباراة ؟ نعم إنّ المباراة فتحت لأهل النقيصة أبواب الخزى ، فاستباح الطالب الغشّ فى الامتحان ، وراءى فى تحصيل العلم ، وحشا عقله بعلوم لا حظّ له منها إلّا استدراك الفوز على

الأقران ، حتّى إذا انتهى الامتحان طوى صحف العلم ، وتناسى قضاياه ، وفعل ماينهى العلم عنه .

وكثيرًا ما تهافت المجرمون على النفيسة وولج الأغنياء غمار الإسراف إجابة لمطامعهم السافلة ، فالمباراة التى من هذا القبيل ممقوتة بلا نزاع . ومن ينكر أنّ المباراة حلّت فى جميع عصور التاريخ محلاً نخما ، وقطعت بالمدنيّة مراحل بعيدة المدى ؟ نرى الأدب العربىّ مثلاً نهض نهوضاً بديعاً فى عصر الدولة العبّاسيّة ، ونبحث عن السبب فنجد الأدباء تنافسوا فى رفع مناره ، وفى الحظوة عند الخلفاء الذين كانوا يجلّون منزلة الأدب . ونجد الآن فنّ الطيران سار أشواطًا سريعة تجاوز بها أدوار النشوء ، والمباراة عامل كبير لهذا الرقىّ . كذلك دخلت المباراة مبيعاتنا ومشترياتنا ، وفى التآليف ومواضع الابتداع ، وفى الغلبة والسيادة ؛ فهى روح فيّاضة تثير الهمم ، أصبحت بها الأمم أكثر نشاطا . وأشدّ إقداما ، وأجود عملا . ولم تَعْدَم المعارض ودور التحف نصيبها من المباراة بين الأمم ، ورأينا فى رحابها — أينما وجدت — فروع العلم وضروب الصناعة كأغصان الكرم مدلّاة لمن يقطف ثمارها ، معروضة للناظرين من درجة السذاجة إلى قمّة الحسن والإبداع ، كأنّها تنادى الإنسان أن يجول ببصره فى آثار السلف على ترتيب وجودها فى سلّم الارتقاء ، لعلّه يحتذيها ويختطّ لنفسه مكاناً يناسب زمنه وعقله وبيئته ، لتجرى السنّة الطبيعيّة مجراها فى الإتقان .

والمجلّات والمحافل كذلك ميادين للمباراة يطّلع فيها القارئ على ثمرات العقول ، ويتعرّف سريان نور الحقّ . وكم رأينا أناساً استحكم فيهم داء الأثَرة فخافوا أن يسبقهم غيرهم إذا باراهم ، فكتموا العلم فى صدورهم وضنُّوا به عن الإنفاق ؛ فهؤلاء إذا انقضت آجالهم ماتوا ودفنت معهم تجاربهم ، وحرَمُوا العالم ثمرتها ، وأُهمِل ذكرهم من تاريخ نهضة العلوم .

وكم أناس تباروا فى الإصلاح ، واستشاروا الرأى العامّ على لسان الصحف فى حكمة عثروا عليها ، أو صنعة ابتدعوها ، أو أثارة من علم دوّنوها ودعموها بالتجارب الصحيحة ، فذكرها التاريخ مقرونة بالفخر ، وردَّد الخلف صداها مقروناً بالإعجاب ، ثمّ جاءت على أثرهم أمم جعلت خاتمة مطاف سلفها مبدأ لأعمالها ، واندفعت فى ميدان المباراة بجدّ وإخلاص ، فهؤلاء خليقون بالسيادة وتسخير الأمم لإرادتهم . مؤكّدون عرا الرابطة التى أذن الله أن توثق فى سبيل التعارف « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

المباراة فى المدرسة

المباراة من الغرائز التى تستدعى رعاية وضبطا ، وهى كالأرض الخصبة تجود بالخيرات إذا خُدِمت ، وتنبتُ الحَسَك إذا أهملت .

وجدير بالمتسابقين أن يكونوا من سنّ متناسبة ، وأن تكون رقابة المعلّمين عليهم متينة ، ليحولوا بينهم وبين الجموح وسوء المعاملة اللذين يحدثان عادة بين المتسابقين . وعليهم أن يجعلوا نُصب أعينهم غاية محبوبة كالجوائز يستحثّون همّتهم على إدراكها ، ومتى تذوّقوا طعم العلم لم يكن هناك حاجة إليها ، بل يكون حبُّ العلم والتوسُّع فيه رائدًا للإكباب عليه .

الجوائز المدرسية

وللمعاهد عند الأمم الراقية عناية بشأن المكافآت ، يوزّعونها في حفلات مشهودة يؤمّها الآباء ومن يهمّهم أمر النشء ، وفيها ينتهز المعلّمون الفرص فيحادثون الآباء في ميول أبنائهم التي يشاهدونها فيهم ، ويبحثون معهم في تقويمها واختيار ما يناسبها من العلوم والفنون ، ويذكرون لهم عجائب الفطرة في تباين القوى . وأحسن من الجائزة المادّيّة كلمة الشكر يسمعها التلميذ من المعلّم في حضرة إخوانه . رأيت معلّماً أصلح أمالي تلاميذه وقدّر درجاتها وأعاد الدفاتر إليهم ، ثم سألهم : من نال درجة الفوقان ؟ فوقف تلميذان وملامح السرور بادية على وجوههما فأثنى عليهما ، ولم يذكر أسماء الضعفاء الذين أهملوا جانبي الصواب والإتقان ، واكتفى بتوعُّدهم إذا عادوا إلى مثل هذا التقصير ،

اعتاد معلّم في أثناء الدرس الأخير من الأسبوع أن يقف تلاميذه حوله ذات اليمين وذات الشمال ، وأمر أحد الجانبين أن يطرح على الجانب الآخر أسئلة من درس الأسبوع يختارها كما يشاء . ومتى كبا جواد المسئول من الجانب الأيمن ، وقدر السائل ـ وكان من الجانب

الأيسر — على الإجابة عنها ، كان له أن يحتلّ مكانه ، وكلّما انتهى بهم التنافس إلى ترتيب حفظوه إلى الأسبوع الذى يليه .

شاهدتهم بين يدى هذا التنافس يختارون الأسئلة الغامضة ، ويعوّدون ألسنتهم التعبير عنها وعن أجوبتها ، ويناضلون لإظهار الحقّ ، ويسارعون إلى إحراز الثناء ، ويجاهدون فى تقويم مُعْوَجّ نفوسهم ، نازعين عنها طلاء الغرور والخيلاء كأنّهم يقولون : —

وحيثما كلّنا يرمى إلى غرض   فحبّذا ناضل منّا ومنضول

٨) غريزة الفخر

المحاكاة تتحوّل إلى مباراة والمباراة تتحوّل إلى فخر وخُيَلاء ، وكلاهما ظاهر الأثر فى عالم الحيوان والإنسان . فالحصان وهو بمرأى ومسمع حصان آخر ينفخ أنفه ، ويحنى رقبته ، ويرفع ذيله ، ويمشى مِشية الإعجاب والصلَف ، ويَصهل مشيرًا إلى ما كَمَنَ فى صدره من حبّ الفخر .

والطاوس يَدِلُّ فى مشيته ، وينشر ريشه ذا اللون الزاهى مباهيًا به . فتجده كالعروس يختال من فرط ما منحته الفطرة من الجمال ، ويُسْمِعَ الناسَ صوته لعلّهم يلتفتون إليه .

يبدو الفخر من الأطفال وهم على وَشْك المشى ، وعند ما يستطيعون الإعراب عمّا يدور بخلدهم ، وحيثما يشاهدون ارتياح الناس إلى أفعالهم . سرّح نظرك فى ميولهم إذا لبسوا قشيب الثياب

فى حفلات الأفراح والأعياد ، تجدهم يتيهون إذا رمقتهم العيون فى غدَواتهم ورَوْحاتهم ، وجلُّ أمانيّهم أن يُسأَلوا عن نوعها وثمنها وحسن هندامها ، ويسرُّهم الإطناب فى ذكر أوصافها ولا يأنفون من المبالغة . ومتى عادوا إلى منازلهم ولم يجدوا للفخر مجالاً طَوَوْها ، واكتفوا من اللبس بما يسدُّ الحاجة .

وكما تجد الطفل مطبوعاً على حبّ الفخر ، تجد قلوب الرجال ولا سيَّما أولى المواهب السامية فى الخطابة والشعر والمناظرة قد أُشربت محبَّته ، وكلمةُ المديح تبعث فى نفوسهم همَّة وإقداماً وإتقانا . وقد سَمِع المصطفى أناساً يُطْرون شخصاً فقال « لقد قصمتم ظهر الرجل » لأنه إذ يسمع المديح لا يتمالك نفسه أن يستزيد من أسبابه ، وربَّما طاش سهم إرادته فأورده موارد الهلاك .

عرف الصحفيُّون الغربيُّون طبيعة الأوانس وما يَهْوَيْنَه من أفانين التجمُّل والفخر ، فلم يَصِفوا محفِلاً إلّا جعلوا همَّتهم تفصيل ما أبدعن من اللبس ، وما أفرطن من التنسيق . وأهل الترف والبذخ يقيمون المآدب ويصفُّون عليها أطيب المطاعم والمشارب ، ويتأنقون فى اللبس والأكل والركوب والسكنى ليجعلوا من ذكرهم أحاديث للناس ، ولا يبالون أأنفقوا فيها جميع ثروتهم ، أم طوَّحت بهم طوائح الديون .

قال الله تعالى : « تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » وفى هذا القول

إشارة إلى مثوبة من يتجرّد من إرادة العلوّ والفساد معاً ، أمّا العلوُّ وحده الجارى على سُنَنه المشروعة فلم يَغْمَطه أحد مقامه بين درجات الكمال . ولدى نزول الوحى بهذه الآية قال علىُّ بن أبى طالب : « أمّا الفسادَ فلا نبغى ، وأمّا العلوُّ ففى النفس منه شىء » .

ولولا الفخر ماخاض القوّاد سبل المنايا برِباطة جأش ، ولا دأب أساطين العلم وفُرسانُ البلاغة فى البحث والتنقيب ، وهو بغية النفوس ، تهجر من أجله اللذائذ ، وتضحّى بكل عزيز فى سبيله .

ودائماً تطمح النفس إلى الموازنة بين ما أُوتيَتْ من فضل وما ناله الخلطاء والمعاشرون ، حتّى إذا شَفَّت الموازنة عن شرف حسبها ، وعلوّ مكانها من العزيمة والإرادة ، وغزارةِ ثروتها من المال والولد ، تجد شعور الشمم يتولّاها ، فلا تحيد عن الفخر قِيدَ أنْمُلة . والنفس الكاملة لا تندفع حينئذ فى تيّار الزهو والغرور ، بل تستزيد من محاكاة نماذج الفضائل التى زخرت بها تراجم العظماء ، وربّما لعبت بها فواعل الغرور فسارت بها فى أودية الصلَف والكبرياء ، فتنحلُّ رابطة الوئام بينها وبين الناس ، وتبوء بالخسران .

والفخر بالمحتد معدود عند الأمم عامّة من أسمى الأقدار ، وكان للعرب حظ وافر منه ، ذلك لأنّ الأصل الشريف ينتقل إلى الذرّيّة بالوراثة كما أسهبت الكلام عنه فى باب الوراثة ، أو لأنّ الانتساب فى ذاته يهيئ الخلف لاقتفاء أثر السلف الصالح احتفاظاً بسلسلة النسب الشريف . وما أغبى من يفتخر بنسبه المتّصل بالأتقياء وهو يشرد عن

الصلاح . فعمله حينئذ مناقض لشرف الانتماء ! قال البحترىُّ مشيرًا إلى هذا :

ولست أعتدُّ للفتى شرفًا حتى يرى فى فِعاله حَسَبُه

ما ورد فى الفخر

وقد قال المصطفى لنفر من قريش فى معرض الفخر بنسبه : « أنا خيركم بيتًا وخيركم والدا » ؛ وقال فى معرض الفخر بأدبه : « أدَّبنى ربّى فأحسن تأديبى »

كذلك افتخر أبو بكر الصدّيق فقال فى خطبته يوم السقيفة : « نحن المهاجرين أوّلُ الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأمسُّهم رحمًا برسول الله » . وكان الحسن ابن علىّ يفخر بأنّه يَمُتُّ إلى المصطفى بالقرابة ، وإلى العمل الصالح بالهمّة والإقدام . صَعِدَ المنبر يومًا وكان معاوية — أمير المؤمنين — حاضرًا فأفاض الحديث فخرًا بنسبه . فامتعض منه معاوية وبكّته بقوله : « يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة » فانتقل الحسن إلى التعريض بمعاوية بدون مبالاة ، لعلمه أنّ جلال نسبه بالمصطفى يَعْضُدُه ويَصُدُّ عنه كيد المعتدين .

وكان كعب بن زهير مولعًا بالفخر بجودة شعره ، حتّى كان إذا أنشد شعرًا قال لنفسه : « أحسنت وجاوزت حدَّ الإحسان » .

وافتخر سيف الدولة بأنّه أغزى الملوك ، فقد جمع نفض الغبار الذى يتلبّد عليه فى غزواته ، وصنع منه لِبنَة ، وأوصى أن يوضع خدُّه عليها فى لحده ، فأنفذوا وصيّته . وغلا الأخوص فى الفخر بنفسه فقال:

وإذا سألت عن الكرام وجدتنى كالشمس لا تخفى بكلّ مكان

ولا تكاد تجد إنساناً أنكر صولة الفخر وما له من المكانة الشمّاء فى النفوس ، وكُتُب الأدب مكتظّة به وتدعو إليه إذا كان حقاً غير منتحل « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث »

تجد الروح السامية لا تكتفى بقيادة الجسم وتَسَلُّم زمامه وحده بل تودُّ لو أنّها احتلّت الأجسام الاخر ، وصرّفتها على حسب ميولها ، وحلّت فيها محلّ التبجيل . ولا يكون ذلك إلّا إذا اندمجت مصلحتها فى مصلحة النفوس ، وتجرّدت من الأغراض الشخصيّة البحتة . كان مَجَرِىٌّ مسافرا ، وبينما كان يطلُّ من نافذة عربة القطار بَصُر بشخص مشرف على الغرق ، فمدّ يده إلى حبل الخطر فشدّه فوقف القطار ، ثمّ نزل وذهب مسرعاً إلى الغريق فانتشله وعاد به إلى الشاطئ حيّا ، ثمّ عاد فركب . هنالك أكبره الركّاب ، وصافحوه بيد السرور والإعجاب. فإلى صاحب هذه النفس الكبيرة تنطلق الألسنة بالشكر ، وإلى أمثاله الذين ظفروا من العلم بغاية نبيلة ، ومن الصناعة بثمرة جليلة . وتُزيّن صدور التاريخ بمثل هذا المجد الأثيل ، والباع الطويل . وما ظنُّك بعمل صالح يعمله الإنسان يبغى به كشف جهالة ، أو إنهاضاً من عثرة ، أو إيقاظاً من غفلة ؟

نعم قد يكون مصدر الفخر جمال البدن وصحّته ، وقد يكون بالرياسة وبالكياسة وبالبطش وبالمال والأولاد ، ولو نظر الإنسان إلى عواقب ذلك لعلم أنّها عرض زائل ، فمصير الجسم إلى الزوال ،

ومصير الصحّة إلى الانحلال ، والقوّة إلى الضعف ، والمال كالمسافر يحلّ ويرحل . وما أشقى من يفتخر بشيء يرقب القضاء عليه فى غده ! ومن تذكّر صروف الدهر وراقب تقلّبات الأمور لا يطمئنّ له قلب ، فما هى إلّا كلمة القضاء حتّى يتغيّر سعد الإنسان إلى نحس ، وينتقل نعيمه إلى بؤس ، وإذا قصدت إلى الفخر سبيلاً فدونك العقل الكامل فهو الدِعامة التى تُشَيَّد عليها جلائل الأعمال .

لو أطلق الإنسان نفسه على سجيّتها ما أشفقت على البائس ، ولا رحمت لوعة الفقير ، بل تتبدّل بالإشفاق عليه جموداً ، وبالعطف إعراضاً وصدودا ، وبالميل جفاء ، وبالحنوّ غلظة واعتداء . ومن عجب أنّك ترى هذا الشخص عينه إذا حشر بين إخوانه يتورّط إيثارًا للفخر فيخرج عن طبعه ، ويجود بما يزيد على وسعه ، فيكون حبّ الفخر للخيرات وازعا ، وعن الرذائل رادعا .

ولمّا كان الفخر محبوباً سارع إليه المفتونون بحقّ وبغير حقّ ، واختلقوا الحوادث ليموّهوا أنّهم موسومون بالسخاء والشجاعة ، واستحثّوا الشعراء ليُشيدوا بذكرهم ، ويملئوا الفضاء بمحامدهم ، ولكنّ الأوهام كالضباب تتبدّد إذا سطعت عليها شمس الحقيقة ، ويكون حالهم كالممثّلين على المسارح ينصبون أنفسهم ملوكًا وأمراء يتحكمون فى رقاب العالم ، ومتى انتهى التمثيل رجعوا سوقة كما كانوا . ومن أمثلة ذلك أنّ ابن نباتة مدح فخر الملك وزير بنى بويه بقوله : —

لكلّ فتى قرين حين يسمو وفخر الملك ليس له قرين

أنخ بجنابه وانزل عليه على حكم الوفا وأنا الضمين

فجاء إلى فخر الملك رجل يستجديه فلم يعطه شيئا ، فمضى إلى القاضي وادّعى على ابن نباتة الشاعر أنّه ضمين غارم ، فاستمهله حتّى وصل إلى فخر الملك وأخبره القصّة ، فسأل الرجل كما أمّلت قال : مائة دينار ، فأعطاه إيّاها ، ثمّ قال لابن نباتة : إذا مدحتنى فلا تعد تضمن عنّى شيئا .

وأن المتنبّى سار فى البيداء فاعتدى عليه «فاتك» ولمّا لاذ بالفرار ذكّره بقوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فاغترّ بشعره الذى اعتقد صحّته ، وكان من أمره أن تصدّى لقتال خصمه ، فخاق به فخره الكاذب ، وأوقعه فى شرك الموت .

الفخر والتلميذ

يحقّ للتلميذ أن يفتخر بالفوقان على أقرانه لأنّه ثمرة جدّه ؛ يحقّ له أن يفتخر بما ادّخر من المال بدون تقتير ولا سفهٍ عاقداً عزيمته على صرفه فى وجوه البرّ ، وإلّا عدّ فخره خزياً وعارا ؛ يحقّ له الفخر بالإنفاق على العجزة والبائسين تخفيفاً للوعتهم وحثّا لعواطف الجامدين ، فإنّ أكثر البخلاء ينفقون المال لا حبّا فى الإنفاق بل مجاراة للمحسنين ودفعاً لمرّة البخل ، وتسكيناً لثائرة الهجّائين ؛ يحقّ له الفخر بإهداء الكتب للمعاهد ، وبالسعى لرفع منار العلم ، وبإطعام اليتامى ، ومعالجة

المرضى ، يحقّ له أن يفتخر كما افتخر رسول الله بقوله : « أُعطيت جوامع الكلم » فإنّ فى هذا تحدّثاً بنعم الله

إننا ننكر عليه أن يفرغ حديثه فى قالب الفخفخة فيؤلم عواطف معاشريه ، وبذلك ينحرفون عنه فيَخسَرهم عند مسيس الحاجة ، ويَخسِرُون به فرداً عاملاً من المجموع العامّ . ننكر عليه أن يحبّذ نفسه بأنّه نال جائزة أو شهادة ، أو يضعهما فى منزله على مرأى من زائريه ، فإنّ شهادة الأعمال المبرورة خير وأبقى .

أيُّها المفتخر اجعل من عملك لساناً ناطقاً صادقا ، ولسانُ الحال أبلغ من لسان المقال ، افتخر بالجدّ والسهر للمصلحة ونصرة الضعفاء ، وخدمة الوطن وبذل الوسع فى ترقية شئونه وإرشاد أهل الضلال .

واتبع نصيحة ابن المقفع حيث يقول : « إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك برتبة فى كلّ مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل ، فإنّ رفع الناس إيّاك فوق المنزلة التى تحطّ إليها نفسك ، وتقريبَهم إيّاك إلى المجلس الذى تباعدت منه ، وتعظيمَهم من أمرك مالم تعظّم ، وتزيينَهم من كلامك ورأيك وفعلك مالم تزيّن هو الجمال » .

---

٩) غريزة الملك والاقتناء

ما أبعد الحيوان عن مطامع الملك والاقتناء ! يستغنى عن اللباس يستر به جسمه . ويكتفى بالنزر اليسير من الطعام الذى يجده بلا عناء ، ويرضى من السكنى بالمأوى الحقير يَكمُن فيه سواد الليل ، ويحفظ

openkanz.com

obeikandl.com

المرعى الذى يكفيه ومن يعوله قانعاً من القوت بالكفاف ، فلذلك عاش هنىء البال قرير العين . ثمّ تسرّبت المطامع إلى قلب الإنسان لمّا زاد نسله وبرقت أمامه بوارق الحضارة ، فأصبح لا يقتصر من المسكن وغيره على مايكفيه طول حياته ، بل أغار على جيرانه ، وتوسّل بالطرق المشروعة وغير المشروعة إلى السرقة والاغتصاب ، ولو فكّر لعلم أنّ الأرض تستهويه بجمالها ليملكها ، وتَحُثُّه غريزة الملك ليعمّرها ، ثمّ تتبادلها الأيدى بالميراث والبيع جيلاً بعد جيل ، حتّى إنّك لو أحصيت مَنْ ملكوا على التوالى قطعة صغيرة من الأرض لأعياك العدُّ ، وتملّكتْكَ الدهشة من أنّ الأرض لا تزال كما كانت ، وأنّ مُلّاكها هم فى الحقيقة خُدّام سخّرتهم هذه الغريزة لإصلاحها ، وهذه من سنن الكون البديعة .

وعلى حطام الدنيا يتنازع الأصدقاء أحيانا ، ويرغب كلّ منهم فى أن يملكه وحده ، ولا يرضيهم أن يقسموه بينهم . فشت هذه الحال بين صغار السنّ وكبارها على السواء « يشيب ابن آدم ويشِبُّ معه خَصْلتان : الحرص وطول الأمل » . نعم إنّ الإنسان — مهما بلغت درجته من العلم — لا يكاد يرى شيئاً طريفاً حتّى تجيش نفسه بحبّ ملكه ، مع أنّه قد يكون فى حلّ من النظر إليه أو التمتّع باستئجاره . فما سرُّ هذا ؟ إنّ فى الملك معنى نفسيًّا تصبو إليه النفس ، هو حرّيّة التصرُّف فيه بالتغيير الذى يتّفق هو وذوق المالك ، والمستأجر مسلوب الحرّيّة ، لا يتعدّى الحدود التى يرسمها له المالك ليضمن سلامة

العين المستأجرة ، ومع ذلك فهو مهدَّد بفسخ عقد الإجارة وبغير ذلك من ضروب المهانة .

فوائد الملك

إنّ اختيار مكان البيت مثلاً وحرّيّة التصرُّف فيه بتنسيق البناء وترتيب الأثاث وغرس الأشجار مظهر من مظاهر ذوق المالك . ملّك الطفل كتاباً تجده أحياناً يمزّقه منقاداً إلى ذلك بغريزة سيأتي شرحها ، وأحياناً يُغلّفه وينمّق عليه اسمه ، ويوسّع له ركناً في خزانته يغدو ويروح إليها ، ويَقرُّ به عيناً ولو لم يقرأ فيه ، ويقيّد به من الشوارد ما شاءت ميوله . وإذا أُتيح له أب يحترم فيه هذه الغريزة كان من مقتضيات هذا الاحترام أن يحتفظ بالكتب التي مَلّكه إيّاها صغيراً ، ويسلّمه إيّاها كبيراً ، ليتيسّر له أن يراجع ما درسه فيها ، وأن يتذكر مقدار جولان ذهنه في مضامينها في عهد الطفولة ، والطرق التي اتّبعها المعلّم معه فتنفعه الذكرى .

إذا عرفت فائدة الملك أمكنك الحكم على قصار النظر الذين يَخْشَوْن نزول الفاقة بأبنائهم وحَفَدتهم فيحبسون عليهم أملاكهم ، ويغلّون أيديهم عن التصرُّف فيها ، ولا يكاد ينقضي الجيل حتّى يزداد النسل ويقلّ الرَّيْع ، فتنصرف عنايتهم عن إصلاحه لحاجتهم إلى النفقة ، وانفكاكِ رابطة الإخاء فيما بينهم ، فيئول هذا الملك إلى خرائب ، ويصبح مصدر تنازع مستمرّ . وسبباً لفقر لا طاقة لهم

بتحمُّله . لو أنصف الآباء لتركوا لورثتهم هذا الملك يقتسمونه بينهم اقتساماً شرعيًّا ليتصرّفوا بمواهبهم فيه . فإنّهم إذا صاحوا استفادوا منه وعمّروه ، وإذا فسدوا خرج من أيديهم وانتقل إلى مَنْ يصلحه ، وهذه نتيجة طبيعيّة للإهمال الذى هو سبيل العظة ، قال علىُّ بن أبى طالب « ما ذهب من مالك ما وعظك » .

يُحْسِنُ المعلّمون والآباء صنعاً إذا تضافروا على تقويم هذه الغريزة ، فحظُّ الآباء إعطاء أبنائهم مصروفهم اليومىّ ، وحظّ المعلمين موالاة الحثّ على ادّخاره ، ومناقشتهم فى وجوه الصرف فى المقتنيات ، ملاحظين أنّ الأخيرة تحتاج إلى أضعاف ما تحتاج إليه الأولى من الحكمة والسداد ومعرفة قيم الأشياء ، وهى تتنوّع تبعاً لما ركز فى نفس المقدّر . إليك قطعةَ الخزف القديمة ، يشتريها بوزنها ذهباً مَنْ يعلم أنّها تسدُّ الثُّلْمَة بين التحف العاديّة ، وترشد إلى تاريخ الصناعة فى عصرها ؛ والخطوط الأثريّة تُشترى بثمن غالٍ لأنّها تسدُّ فراغاً يلائمها ؛ وعشّاق التاريخ يجمعون مُخَنَّط الحشرات وما انقضى عهده من الثياب والآنية ومعدّات الحرب . ويباهى الأغنياء باقتناء الصور التى رسمها رافاييل[1] ويشترونها بآلاف الجنيهات ، لأنّ التاريخ حفظ للراسم البارع هذه المهارة ودقّةَ الصنعة ، فتهافت عليها وعلى أمثالها

قيم الأشياء الذاتية والنسبية

(١) رافاييل Raphael ايطالى نبغ فى الرسم والتلوين فى القرن السادس عشر الميلادى دعاه البابا يوليوس الثانى إلى رومه لينقش حجرات قصره الفخم (الفاتيكان) فأبدى براعة فائقة

عشّاق الفنّ ، وكلّما قَدُم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة ، وكان القوم عليه أشدّ حرصا ، وتنافسوا فى ملكه وفى تقدير ثمنه . وللعلماء شغف باقتناء الأسفار لا سيّما ذات الخطّ اليدوىّ ، يجمعونها للاستفادة من محتوياتها ومن الذوق الفنّىّ السائد فى عصره . ولهم كذلك شغف بالأسفار إلى الممالك النائية يقرءون فيها ماسطّرته يد الطبيعة، ويقتبسون منها ماجادت به أنوار الحقيقة ، فيقفون على العادات وما تدرّجوا إليه فى سبل الحضارة .

يخرج الأطفال للتنزّه ويسرّهم إجابة مطالب هذه الغريزة بجمع ما تمتدّ إليه أيديهم من الصدف والأحجار ، وإذا عادوا إلى منازلهم طرحوه فى ناحية منه وقلّما أعاروه التفاتا . فلينتهز الآباء هذه الفرصة السانحة ، وليفسحوا لهذه المقتنيات مكاناً خاصًّا لينسّق فيه الأبناء ما يعثرون عليه من الطُرف ، فإنّ ترداد النظر إليها يَحُثُّهم على البحث عن فوائدها . أمّا الكتب فهى كنز العلوم وخلاصة الأفكار سهر العلماء فى الحصول عليها وتدوينها ، فحقّ لنا أن نفاخر باقتنائها ، ونزيّن بها حجراتنا ، ونزيد بقراءتها معلوماتنا . ولم يكن للفقراء فيما مضى مندوحة لشرائها لغلاء ثمنها ، أمّا الآن وقد ذاعت الطباعة وراج سوق الكتب وَرُخصت أسعارها ، فحقّ لنا أن ننشّط المؤلّفين بشراء مؤلّفاتهم ، وأن نحبّب إلى أبنائنا شراءها ممّا يقتصدونه من المال ، ونعرّفهم سبل الاحتفاظ بها ،

وقد كانت الكتب إلى عهد قريب تصرف للتلاميذ على سبيل

العارية ، ثمّ ترد بعد الفراغ من الدرس : حمدنا الله على نبذ هذه الخطّة السقيمة ، لأنّ فيها حرمان الطفل لذّة الملك، وحرمانه مراجعة الدروس فى أوقات العُطْلة ، وحرمانه الاحتفاظ بالكتب التى زوّدته بالعلم ، وقيمة الاحتفاظ بها ثمينة يدركها الطفل متى كبر .

وللمقتنيات حظٌّ وافر من العناية عند كثير من الأمم المتمدينة ، وأُمنيّة الرجل منهم إذا هاجر أو ساح فى بلد أن يعود إلى منزله ، ويعرضَ فيه كلّ ما جمعه من المقتنيات ، ويدعوَ إليها زائريه ويحادثَهم فى تاريخ العثور عليها . فهل لنا من مربّين يحرّكون فينا هذا الميل ؟

لا يكاد يخلو إنسان من شىء يقتنيه ويبالغ فى الحصول عليه . رأينا من يقتنى المصوّرات التى ابتدعتها أنامل مهرة المصوّرين أمثال رينولد Reynold فقد رسم وجه ابنة أمير وهى فى طور الطفولة ، رسمها فى خمسة أوضاع وأفاض عليها روح الملائكة ، فاجتمع من حسن تنسيقها وما أسبغ عليها من اللون مثالٌ من الجمال له رَوْعة كروعة الشعر ، والشعر والرسم أخَوَان وهما وليدا الخيال ، وقد عرضت فى لندن صورة من رسمه وهى من مقتنيات أحد الأغنياء فبلغت قيمتها ٥٢ ألفاً من الجنيهات

ورأينا من أُولع بالنبات يبنى له السقائف الزجاجيّة ، ويتّخذ لها النوافذ والمدافئ ومقاييس الحرارة ، ويهمّه أن يصل منها إلى ورقة نَضْرة ، أو زهرة بديعة ، أو ثمرة نادرة ، يقدّمها فى المعارض الزراعيّة دليلاً على أنّه أفرغ الوسع وأجاد . ورأينا من يجمع أوراق النبات

المختلفة الأشكال وأنواع الأزهار ، يضغطها ويتّخذ منها مجموعات لدراسة التاريخ . ورأينا من يهتمُّ باقتناء الدواجن والطير المغرّد والحيوان الوحشيّ والخيل والكلاب والقطط ، يراقبها ويدرس طبائعها ، ويجعلها سلوته فى زمن العطلة . ورأينا من يجمع النُصُب التى تمثّل الإنسان فى أطواره المختلفة ، ويؤلّفها تأليفاً يصحُّ أن يسمَّى ديوان الهيئة الإنسانيّة. ولم تصل الأمم الحيّة إلى هـذه الدرجة إلّا بفضل التعليم ، فقـد عنى المربُّون بمراقبـة أذواق المتعلّمين وميولهم ، وأيقظوا الشعور الغريزىّ الكامن منذ الصغر حتّى نما ، وصار ملكة يعوّل عليها فى تقدير الحسن ، وتمييز الجمال ، وتدقيق النظر إلى كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تدلُّ على بارئها بجميل صنعها . ونحن إذا دخلنا بستاناً فأيسر شىء نراه فيه صنوف الورد والزهر ، وندهش من حسن أوضاعها وذكاء ريحها وبهاء لونها ، ونودّ لو أنّها تبقى على حالها طويلاً لتزداد حواسُّنا بها تمتُّعا ، وهذا هو السرُّ فى أنّ صورها فى شكلها الصناعىّ أغلى منها فى شكلها الطبيعىّ ، إذ لا يستطيع المصوّر البارع أن يخرج لنا هـذه الصورة طبق الأصل إلّا بعد إمعان طويل فى دقائق القدرة الإلهيّة ، وعناء كبير فى سبيل المحاكاة

والحكومة كالأفراد تغلو فى اقتناء النفائس على قـدر عزمها العلمىّ والمالىّ . نرى فى مصر دارَى التحف المصريّة والعربيّـة وقد غُصَّت رحابهما بتروكات الآباء التى تقادم عليها العهد ، ولست تجد بينها من طرائف مصر فى العصور الحديثة مايدلُّ على فضل ونهوض.

وإذا شخصت إلى دور التحف للأمم الحيّة وجدت ذخائرها القديمة والحديثة قد التأمت ، ولا تكاد تجد فيها صناعة أُهمل تاريخها . ففيها نماذج الآلات والأساطيل مرتّبة بحسب عصورها وتدرُّجها فى التحسين .

هذا وإنّ حُبَّ الحكومات الراقية للمقتنيات التاريخيَّة ، دعاها إلى شراء القصور القديمة وما فيها من أثاث ورياش لنحتفظ بتاريخ السلف . وقد تغلو الحكومة فتقتنى الجواهر المنقطعة النظير أمثال (قوه نور) وهى ماسة كبيرة الحجم وصلت إلى لندن فى القرن الماضى وكانت فى تاج أحد ملوك الهند .

(١٠ ــ ١١) غريزتا الحلّ والربط

إنّ الطفل لا يفهم ما يحيط به من الكائنات إلا بمعونة الآباء والمعلّمين ، وهم فى الواقع لا يستطيعون سَبْر غَوْر ميوله إلّا بعد زمن طويل ، فوجب عليهم أن يفوّضوا إليه استجلاء الحقائق واختبار الأمور بما ركز فى جبلّته من غريزتى الحلّ والربط . يتناول الصورة مثلاً فيرتاح إلى النظرة الأولى إليها لغرابتها ، ثمّ يُصَيّرها الاستعمال مبتذلة لولا ما يُدخله فيها من التغيير ، ولا نعجب إذا رأيناه يعبث بها لعلّه يصل إلى تغيير مناسب يؤثّر فيه التأثير الرائع . يأخذ اللعبة ولا يكاد يمضى اليوم حتّى يكسرها . يمسك الساعة فتدهشه دقّاتها ، ويحاول فتح غطائها ليقف على السرّ المكنون فى باطنها ، وإذا أعياه ذلك

كسرها لا حُبًّا فى الإتلاف كما وَهِم المخطئون ، بل طموحاً إلى علم تجريبىّ يطفئ به أُوار ظمئه ؛

ومِمَّا يدُلُّ على أنَّ الطفل مولع بالتركيب أنه ينبرى لصنع طيّارة مثلاً إذا اجتمع عنده الخيزُران والورق ، وينبرى لصنع الكيس إذا توافرت لديه القصاصات ، ويقيم البيت ممَّا يقع فى يده من الأشياء . وقد تحرّك هـذا الميل فى صدرى وأنا صغير ، وانتهزت فرصة فراغى وصنعت مما كنت أجمعه من الموادّ عجلة تدور بمحرّك ، وكان شوق إلى إتمامها وتنفيذ ما دار بخلدى من أمرها يحملانى على مقاساة التعب بدون شعور

الحاجة الى هاتين الغريزتين فى التعليم

على الحلّ والربط عماد اللغات ، لاحتياجنا فى منشآتنا إلى مفردات صحيحة فصيحة نستعيرها من أساليب البلغاء ، نحلُّها ثمّ نصوغها صوغاً جـديداً يعرب عمَّا يدور بخَلَدنا من المعانى ، ونسدُل عليـه ثوب التأثير . ويعوّل علماء الأعضاء على هاتين الغريزتين فيتنافسون فى تشريح الحيوان الحىّ وتجريده من أجزاء مخّه ومراقبـة حركاته لعلّهم يدرسون علاقتها بالمدركات . وقد توسّعوا فعرضوا على مَن سئم الحياة أموالاً طائلة ليَسمَح لهم أن يُجروا التجارب فى جسمه فى أثناء حياته ، فيعرفوا كيف تؤدّى أعضاؤه الباطنيّة وظائفها .

وعلى الجملة لا يستطيع مبدع أن يجول على بصيرة فى ميادين الأعمال بدون أن يتّخذ من هاتين الغريزتين رائداً له . ونحن إذا خفنا عبث الطفل بأثاث منازلنا ، وأغلقنا أمامه أبواب التجارب التى

يستفيد منها العلم الصحيح بما يحيط به أمِنًا الخطر طبعاً ، غير أنَّه ينمو فاتر القوى جامد الذهن ضعيف الإرادة ، ومن أجل ذلك فكّر المربّى « فروبل » فصنع لُعَباً تقبل الفكّ والربط ، يتناولها الطفل ويصوغ منها أوضاعاً يبتدعها . ولبعضهم نماذج مصنوعة من الخشب وُشِّيَ ظاهرها بصور رائعة يفكّها الطفل ، ثمّ يهيم شوقاً بإعادتها كما كانت ، ودليله على ذلك بدوُّ تلك الصور بشكلها الأصلىّ ، ويتولّى بنفسه تركيبها ، ولاستحالة قيام بعض أجزائها مقام بعض لا بُدَّ أن يصلَ إلى وضعها الذى كانت عليه طال به الزمن أو قصر ، وعجينة الصلصال الشائعة الآن فى المدارس أداةٌ وضعت لهذه الغاية ، تسهّل على الطفل محاكاةَ النماذج وتقويم اعوجاج مصنوعاته بنفسه .

١٢) غريزة الاستطلاع

تدلُّ المشاهدات على أنَّ النمل يتّخذ كشّافة لجيشه لترشده إلى خبايا الأمور . وممّا لا جدال فيه أنَّ « نفس الطفل طُلَعَة »[1] ، فالرضيع إذا قرّبت إصبعك من فمه تعلّقَ به عسى أن يكون ثدى أمّه ، ويبكى ليستطلع حنوّ أمّه عليه . والامُّ الواقفة على سرّ هذه الغريزة إذا رأت طفلها ينتحب لنيل غرض معيَّن لا تقرّب منه هذا الغرض ، وإنّما تحمل الطفل إليه ليقترب هو منه ، وتكرار هذا يعوّد الطفل السعى إلى مرغوبه . نطرق أبواب أصحابنا فنسأل الطفل

(١) كثيرة التطلع الى الأشياء

الذى يقابلنا : هل والداك فى المنزل ؟ فلا يجيب عن سؤالنا بل يُلْقى إلينا سؤالًا مثله : متى جئت من السفر ؟ وهل اشتريت لى لعبة ؟ وهل شاهدت ما اقتنيته ؟ الخ . فتحت يوماً كيساً أمام ابن لى يناهز الرابعة من عمره فقال : هل تعطينى قرشاً ؟ ولما رآه مفعماً لم ينتظر الجواب ، بل وجَّه سؤالا آخر : من أين أتيت بما فيه ؟ وهكذا اطَّردت أسئلته بنظام يدلُّ على أنّ نفسه جوالة مستطلعة .

والطفل عند ما تؤثّر فيه رَوْعة الطبيعة يَشْرَئِبُّ إليها فيسأل جلساءه أسئلة غامضة رغبة فى كشف غموضها : لماذا تشرق الشمس ؟ ماذا يجعل الريح هابًّا ؟ كيف يستحيل الحَبُّ شجرا ؟ فما أصبر الحكماء على الإجابة عنها ! لأنّها عماد الحقيقة فى ذهنه . ومِسبارٌ يعرفون به غَوْر ذكائه . ونِبراس يهتدون به إلى معرفة إرادته . أمّا الجهلاء فينفرون من سماعها ، وينكرون عليه عرضها ، وربّما أساءوا إليه سترًا لجهلهم ، ويكون حرمانه الإجابة قاضياً على ما عنده من رمق فتنطفئ فيه جمرة النبوغ وسَرْعان ما تخمد .

رأيت بعض الصبيان يطرقون أبواب المنازل فى غفلة أصحابها ، ثمّ يَهْرُبُون ويقفون بعيداً يستطلعون أمرًا يتوقّعونه من الساكنين ؛ ونرى الناس مكتظّين فى الطرق فنتساءل عن السبب ، وربّما لا يكون المسئول أعلم به من السائل . نعم قد يتجاهل الإنسان فيسأل الناس عن أسباب الأمور ونتائجها وهو عارف بها ، ليقف على ما عندهم من ذكاء وعلم كما كان يفعل سقراط .

تجاهل العارف

ويبلغ الاستطلاع غايته عند قائد الجيش الذى يتأثّر عدوّه ، وعند العالم المدقّق والكاتب والحاسب ، وعند القاضى لتحرّى جانب الصدق متى تجهّمت الأمور وتلاطمت أمواج المنازعات ، وعند السياسىّ الذى يمارس الطبائع ، ويقيس حاضر الأمّة ومستقبلها بماضيها ، وعند المعلّم الذى يتفقّد الميول ويساير الملكات الذهنيّة ؛ ولكلّ شخص ميزة فطريّة لو استطلعها المعلّم وسار بها فى طريق الكمال لَمهّدت لصاحبها سبيل النبوغ ؛ ومن غفل عنها لحقه الفشل لامحالة ، فقد اتّفق لى زيارة معلّم فى درس إملاء وقد نهى تلاميذه عن السؤال فى أثناء الكتابة ، وخانته فطانته فلم يفسّر أوّلاً غامض الألفاظ والأساليب على حسب النظام الطبيعىّ ؛ وبينما هو يملى قاطعه أحد التلاميذ فسأله عن معنى كلمة ، فاستشاط المعلّم غيظاً من مخالفته الأمر وعاقبه ، غافلاً عن مطالب غريزة الاستطلاع ، ولو كان عاقلا لتنبّه من غفلته ، وأدرك أنّه كان مخطئا ، وعاد على نفسه باللائمة ، والتمس للطفل عذراً فى عدم قبول النصح ، وعدم اكتراثه للوعيد .

بحكم هذه الغريزة يتسرّع الطلاّب ، فيسألون المعلّم عن أمر لم يتمّم تمحيصه ، وينقدونه قبل استيعابه ، وقبل معرفة أسبابه ، لأنّ حبّ الاستطلاع كالبخار يجيش به صدر المشتاق إلى تعرّف الحقائق ؛ ولذلك تراه وهو فى مضمار البحث والتنقيب لاهياً عن نفسه ، متحمّلا آلام المشقّة . لعلّك سمعت وصف الموكب الملكىّ الذى أُعِدَّ لتشييع جنازة الطيّب الذكر إدوارد السابع ملك الإنجليز وما أحاط بها من

مظاهر الأبهة والجلال ، تسير فيها الجند من أقطاب المعمورة وبينهم الملوكُ حَمَلَة التيجان ، والأمراء والأعيان ؟ ذهب بعض أصحابي إلى لندن مبكّرين إلى حيث تسنّى لهم رؤيتها ، ووقفوا على أقدامهم زُهاء إحدى عشرة ساعة ، والناس من حولهم يموجون حتّى انسدّت بهم المنافذ على اتّساعها ، وشقّ عليهم أن يتحرّكوا أو يستريحوا أو يأكلوا أو يتنفّسوا ؛ صبروا على ألوان العذاب لنكتحل أبصارهم برؤية هذا الموكب البديع ، وليستطلعوا جَهْد الحكومة فى ترتيبه وتنسيقه ، فصارت نار نفوسهم المضطربة برداً وسلاما .

قال معلّم لتلاميذه وهو يستطلع جولان أفكارهم : رأيت طفلاً محموماً اختلط بإخوانه فأعداهم ، اذكروا لى أمثلة تشبه ذلك . فأجاب أحدهم بأنّ عينه رَمِدت فأصاب الرمد عينه الأخرى ، وأنّ طفلاً حَصِبَ فأعدى الأطفالَ المختلطين به ، وهكذا عرضوا من الأمثلة ما يفيد أنّ عدوى المرض تنتقل من عضو إلى آخر ، ومن جسم إلى آخر ، كما تنتقل الحرارة فى أجزاء قضيب أُحْمِيَ طرفه ؛ وفهموا أنّ الذرّات السابحة فى الجوّ تخرج من المريض فتصيب السليم ، وأنّ الذبابَ يتهافت على المرضى وعلى الأقذار فيحمل بأرجله جراثيم المرض ويلقّح بها الأصحّاء ؛ وخليق بمن يريد الاحتفاظ بصحّته ألّا يسكن الأحياء القذرة .

تقويم الاستطلاع

وللاستطلاع شروط تجب مراعاتها لجنى ثمراته وهى :
التمكّن من الفهم قبل السؤال والانتقاد ، اللهمّ إلّا إذا عرضت

فى أثناء البحث شكوك تعكّر صفاء الحقيقة. فإذا كان هذا فأنصح للمعلّم ألّا يجيب السائل أو الناقد نصّا، بل يحيله إلى سابق علمه، ويطالبه بإجالة فكره، أو يحثّه على مراجعة رفقائه، أو على الاطّلاع على أبواب يقرؤها من كتاب؛ كذلك يلقى المعلّم على مسمع تلاميذه حكاية تنمّ عن خلال محمودة، ويستطلع مبلغ حبّهم لمناصرها؛ أو يعرض مصوّرًا على مرأى منهم، ثمّ يستره عنهم ويستفسرهم مشتملاته كمّا وشكلاً ولونا؛ وكذلك يحاورهم فى غرض معيّن وينبّههم على التوسّع فيه بمراجعة كتب يسمّيها، ويستحثّ همّتهم على تمحيصه والاستدلال عليه وذكر ما فيه من ضعف وقوّة؛ وأخيرًا يلقى عليهم قضايا العلوم، ويطالبهم بتأييدها بالبراهين؛ أو يكلّفهم حلّ المسائل وتطبيق ذلك على ما درسوه.

---

١٣) غريزة اللعب

الجدّ واللعبُ مظهران للحياة، فإذا نهضنا إلى إدراك غرض، وشغلتنا الغاية عن الالتذاذ بالحركة وما يصادفنا فى غضونها من التمتّع بالمشاهد الجميلة والمسموعات الرائعة عَدَدْنا هذه الحركة جِدًّا؛ وإذا تلمّسنا الحركة وجعلناها لنا غرضًا ولم نتطلّع إلى شيء وراءها طال بنا الزمن فيها أو قصر عَدَدْنا هذه الحركة لهوًا ولعبا.

يحسّ الفرقَ بين الجدّ واللعب مَنْ يحبس فكره منقّبًا عن أمر، مدليًا بالحجّة على صحّة قضيّته، أو موازنًا بين أمر ونظيره، فالذهن

حينئذ لا يرتاح إليه ارتياحه إلى لذّة السمر والتنقلِ فى الحديث لأدنى ملابسة .

الحالة النفسية للعب

حقّق اسبنسر أنّ اللعب من مستلزمات الحياة تخرج به القوّة الزائدة على الحاجة كما يخرج بخار المراجل المستغنى عنه . وحقّق غيره أنّ اللعب منزع يرشد المعلّم إلى معرفة الميول النفسيّة الكامنة ، فما أحقّه موضوعاً للدراسة ! أرأيت الأطفال وقد خطر بفكرهم محاكاة القطار فانطلقوا يَعْدُون وقد أمسك كلٌّ منهم ذيل ثوب صاحبه ؟ أرأيتهم وقد حاكَوا الحصان والسائق ، ونفس كلّ منهم مولعة بالبراعة فى التمثيل ، تجدهم أحياناً يتناوبون الأمر بين رئيس ومرءوس ، ليجرّب كلٌّ منهم مطامعه وهمته عند اختلاف المواقف ، وأحياناً يجمد كلٌّ منهم ويصبح أكثر التصاقاً بما اختاره أوّلا ، فلا يفكّر من يمثّل الحصان أن يطلب الوقوف فى مكان صاحبه ، ولا يفكّر من يمثّل السائق أن يتنزّل عن موقفه ، كأنّ نفس الثانى قد طمحت إلى العظمة والاستئثار ، وكأنّ نفس الأوّل قد ركزت فيها أصول المذلّة والصَغار . فحركات هاتين النفسين يميّزها الحكيم ويتنبّأ عن مستقبلهما بالسعود والنحوس .

وهل رأيت الطفلة تطوى عِطافها ، وتتّخذ منه مثل العروس ، تسمّيها وتلبسها ما جمعته من الثياب ، وتحملها على كتفها ، وتجلسها على حجرها وتناغيها ، وتعطف عليها عطف الأمّ على رضيعها . تفعل الطفلة هذا مع أنّها ربّما لا ترى من أمّها مثل هذا العطف والحنان ، ذلك لأنّها مدفوعة بدافع غريزة اللعب والعطف الأمومىّ

أطوار اللعب

١) الطور الأوّل وهو طور الطفولة ينتهى إلى السنة السادسة، والطفل حينئذ يسدُّ باللعب مطامعه الذاتيّـة ولو حصـل منها إيلام المعاشرين، فيُكثِر من الثرثرة والاضطراب والبكاء والنحيب والعويل والضحك والقهقهة والغناء. وإذا قيل له: «ابتعد عن فعل ما يتأذّى منه غيرك»، ثار غضبه وعمـل على نقيض ما يُطلب منـه، وأدخله العناد فى ميادين التصنُّع والمكر.

يجدر بالمعلّمين أن يراقبوا الأطفال وهم فى هذا الطور، فيُسعدوهم ويُسعدوا أنفسهم بما يقتبسون من الفوائد كما كان يفعل الأحنف بن قيس والغزالىُّ وروسُّو وبستالوتزى، فإنّهم كانوا يستفيدون من ممارسة تعليم الأطفال ما لا يستفيدون من الكتب.

رأيت أبنائى يختلفون إلى ساحة المنزل، ويجلسون فيها على هَضْبة رمل ويتقاسمون العمل، فيصنعون بيتاً وينسّقون التماثيل أمامه لمحاكاة المثال الذى أثّر فى نفوسهم. هـذا وأمثاله هو شأن الأطفال يساقون بدافع الفطرة إلى إبراز ما يموج فى عقولهم من الخواطر، ويودُّون لو يطول بهم الأمد ليزيدوا عملهم تنسيقاً وإتقانا.

٢) الطور الثانى وهو بين السابعة والثانية عشرة، والطفل يتعلّم فى هـذا الطور تلك الحركات التى تقوّى الدورة الدمويّة والعضلات كلعبة الإطار والجذف والجرى والمصارعة؛ ويتعلّم من الحركات

ما ينمّى ملكة التنقيب ويصقُل الفراسة ويشحذ الكياسة ، كلعبة الاختفاء والبحث الفاشية بين صبيان مصر وعند كثير من الشعوب ، حاكوا بها الإنسان فى عهده الأوّل الذى اعتاد فيه الصيد ، وحمي نفسه من بطش الوحش .

ومن الألاعيب الفاشية فى مصر لعبةُ المِخراق (الطرّة) بين فريقين يتنافسان فى إظهار ما خفى وَوُكِلَ إلى الفراسة أمْرُ البحث عنه ، والطفل يستفيد منها ثقة الفرد بغيره فى الدفاع ، واحتمالَ تبعة ما تزلُّ فيه قدم الوكيل .

ولُعبة المِقْلاء والقُلَة : وهما عودان يلعب بهما الصبيان ، فالعود الذى يُضْرَب به هو المِقْلاء ، والخشبةُ الصغيرة التى تنصب هى القلَة ، ورَمْيُك بالقلة يسمَّى قَلْوًا ، وذلك أنّك ترمى بالقُلَة فى الجوّ ، ثمّ تضربها بمقلاء فى يدك ، وهى خشبة قدر ذراع فتستمرُّ القُلَةُ ماضية . ومتى وقعت كان طرفاها ناتئين عن الأرض ، فتضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثمّ تعترضها بالمِقلاء فتضربها فى الهواء فتستمرُّ ماضية

ولُعبةُ الأنبوبة : وهى أن يحفِر الصبيان حفيرًا ويدفنون فيه شيئًا ، فمن استخرجه فقد غلب .

ولُعبة القفَيْزى : وهى خشبة تنصب ويتقافز الصبيان عليها .

ولُعبةُ الأرجوحة : وهى خشبة طويلة يضعها الصبيان على مرتفع من الأرض ، ويركب بعضهم على أحد طرفيها ، ويركب الآخر على

الطرف الثانى ، فإذا كان أحد الفريقين أثقل من الآخر همّ بالسقوط .

ولعبةُ البندق : وهو طين مدوّر يُرمى به .

ولُعبةُ الدُّوّامة : وهى ما يلعب بها الصبيان فتدار وهى المشهورة (بالنحلة) .

ولُعبةُ الخُذْروف : وهى شىء يدوّره الصبىّ بخيط فى يديه فيسمع له دويٌّ .

وكثيرًا ما نرى الأطفال يلعبون بالكرات الصغيرة ، ويتغَنَّوْن عند اللعب بها حاسبين عدد حركاتها ، لاهين بها عن إحساس التعب . تجدهم وهم فى بحبوحة الراحة يكدُّون لتمرين الأعصاب والعضلات ، ويوفّقون بين الحركات تنفيذاً لمطالب حاسّتى اللمس والإبصار ، سالكين السبل التى تجعل أعمالهم مرموقة بعين السداد .

نراهم يجتمعون زرافات للعب الكرة فيصنعونها من خَلَق الثياب ، وينتقون من يُحْسِنُ الرماية فيقفونه عند الهدف ، وهو يدفعها إلى إخوانه الواقفين على أبعاد مختلفة منه ، فإذا تلقّفها أحدهم ، أو رماها فأصابت الهدف ، حقّ له أن يذهب إلى موقف الصدارة بلا معارض . ومن خرق سياج هذا القانون عرَّض نفسه لسهام الملام .

ومن الألاعيب التى تغرس حبَّ الشجاعة والإقدام ما يفعله السودانيُّون فى حَفلاتهم ، كأن يتجرّد الشابُّ من ردائه ، وينطلق إلى الميدان حيث يضربه الجلّاد بالسوط على جسده ضرباً مبرّحاً فيسيل منه الدم ، وهو مع ذلك لا يبدى ملالاً ولا ضجرا ، فإذا طال به الأمد

على هـذه الحال زغردت له النساء ، ودقّت له الطبول ، ولا ينفكّ يباهى بآثار هذا الضرب مادام حيًا ، وهى فى نظره وفى عرف قومه سِمات الفروسيّة والثبات .

ومن الألاعيب التى تشحذ الملاحظةَ والخيالَ والفكرَ ما ذاع بيننا من الأحاجىّ التى تضرب فى مغازٍ شتّى ، ويندفع ذهن الناشئ بمحض هواه إلى البحث عن مضامينها ، ولذلك عدَدْتُها من اللعب . كنّا ونحن صبية إذا قَدِم إلى منزلنا زائر التففنا حوله ، وسألناه أن يختبر مداركنا فى شىء منها لعلّنا نوفّق إلى الجواب . فكم ردّد بيننا هذه العبارات « أدُّه أذ النمنمه ، يجيب الخيل ملجّمه » قاصداً حروف الكتابة . « أدُّه أذ الكف ، يقتل ميّة وألف » قاصداً المشط . « لابسه ألف خلقَه ، وقاعده فى الحلقه » قاصداً الكرنب . « المجوزه كاشّه ، وفيها أشّه » قاصداً الزبيبه وهكذا .

وكنّا عند سماعها نتنافس فى تصوير الإجابة معتمدين على الخيال ، وكم لبثنا سواد ليلنا على هـذه الحال وقلّما طاف بأعيننا لذيذ المنام . ولملاحتها أفرد لها الأدباء أبوابًا ، قال البها زهير فى القُفْل :

وأسودَ عارٍ أنحل البرد جسمه وما زال من أوصافه الحرص والمنع
وأعجب شىء كونه الدهر حارساً وليس له عين وليس له سمع

٣) الطور الأخير وهو طويل الأمد ، غير أنّ الألاعيب المتداولة فيه اجتماعيّة الصبغة غالبا ، وقد يُقصَد منها تنشيط الجسم بعد الفتور الناجم من الأشغال الفكريّة ؛ ولهـذه الألاعيب فوائد

عدة أخصُّها ما تعقده بين اللاعبين من روابط الودّ ، وما تنتهى إليه من نسيان الفرد مصلحته الذاتيّـة ، وربّما أفناها فى خدمة المجتمع ؛ لذلك عنيت بها الأمم الراقية ، وفسحت لها المجال بين ساعات الدراسة ، وفى أوقات الفراغ من الأعمال ، فأسّست الأندية للخطابة والألعاب البدنيّة والمبارزة والجَذف وركوب الخيل وتسنُّم الجبال والتمثيل وقطع المراحل مشياً على الأقدام ولعب الشطرَنج الخ .

اللعب والتعليم

علمت أنّ قضايا العلوم إنّما تثبت فى الذهن إذا كانت غضّة شهيّة ، وتزيدها الطرق جفاءً إذا كانت جدّيّة ، لذلك لا تعجب إذا رأينا الطفل يذهب إلى المدرسة فاتر القوّة ، خائر العزيمة ، خائب الأمل ، متعثّرًا فى ذيول الملل ؛ وكيف لا ينقبض صدره ولا تبكى عيناه ، وقد غادر مكانه فى منزله وبين يدى أبويه حيث كان حرًّا فى تصرُّفاته . ولقد استذكر الحكيم فروبل أطواره الأولى وما عانى من الآلام ، فقال : إنّ نفسه وهو طفل تعلّقت ببناء كنيسة راقه شكلها ، فجمع الخشب والطوب والحجر وانبرى للعمل ، ولمّا أعياه الأمر ولم يجد مرشداً دكّ البناء وتحوّل عنه ولبث طَوال عمره يندب ما قاساه من انصراف المعلّمين عنه ، واشتغالهم بأمورهم عن مراقبة هذه الميول ، وبما كانوا يَعْتَدُون على الفطرة فى سيرها ، ويشدّدون النكير عليه إذا خالف أوامرهم الجافّة .

كانوا كذلك فى عصر فروبل ولا يزال كثير منهم فى عصرنا يأنفون من تعليم الصبيان ، ويَضيقون ذرعاً بحسن معاشرتهم ، ويتلمَّسون البعد عنهم كلَّما سنحت الفرصة ، ومتى أسنُّوا يَعُدُّون تعليم الصبيان نزولاً عن المستوى اللائق بهم ، ولو فطنوا لأدركوا أنَّ ممارسة الأطفال تحتاج إلى رعاية الخبير وصبر الحكيم وعلاج الطبيب وامتداد نظرات الفيلسوف الذى يمارس التعليم مستعيناً بالغرائز ، فيثير أحياناً غريزة المحاكاة والمباراة والمنافسة ، وأحياناً يتّخذ من التشويق عضداً فيسوق إليهم الطُرَف على سبيل الجزاء ، وأحياناً يحبّب إليهم العلم والحفظ بالنشيد والأغانى ، وأحياناً يُجلسهم ويقفهم كى لا يكون للملل عليهم نفوذ ، فيذعنون إليه ويطيعونه عن رغبة .

درس فروبل هذه الشئون فى نفسه وفى الأطفال الذين عُهِد إليه فى تربيتهم ، فوُفِّق إلى تأسيس المعهد الذى سمّاه « روضة الأطفال » ليُنمّ عن الغرض منه ، وهو إلباس المدلولات العلميَّة ثوب الزخرف وأسلوب الألاعيب ؛ وقد توسَّع أتباعه فى هذا المقصد وابتدعوا ما شاءوا من النماذج الكفيلة بالغاية المنشودة . وهى إقبال الطفل على العلم بمحض الرغبة .

رأى فروبل أنَّ الكرة أداةٌ لا تستعصى على الحركة فى أىّ وضع ، فصنعها من الخشب ، ووضعها أمام الطفل بحيث تتدحرج يَمنةً ويسرةً منه وإليه ؛ وصنعها من المِطاط لتخفَّ بمرونتها وهى فى قبضته ، يرسلها إلى الفضاء ويتلقّفها ، أو يرمى بها إلى الأرض أو على

الجدار فلا تنلف ولا يتلف بها ما تلامسه ، أو تربط بخيط من المطاط موصول طرفه بالإصبع ، ترسل إلى غرض ثم ترد منه ، أو تعلق بخيط وتحرك حركات ذبذبية ، أو تدار على محيط دائرة . والطفل حينئذ يتناولها ويقلبها ويتأملها ويدير يديه حولها ، ويفحص عن مرونتها وصلابتها وشكلها وثقلها ولونها ، ويكلف أداء حركات يحاكى بها ما يؤديه المعلم أمامه ، ويشرحها بلسانه ، ويسأل عن تفسير ما غمض منها ، فيمرن على الطاعة وإجادة العمل ، ويزداد دربة بتمييز الأشياء والتعبير عنها .

وقد عول المؤدبون على اللعب ، واختاروا للألاعيب أشكالاً حاكوا بها مختلف الآلات ، ليحيط الناشئ علماً بما أخرجته الصناعة في عالم الوجود استعداداً لدرس المجتمع الإنسانى الذى يؤمل أن يعيشوا فيه . ولم يكن عرض هذه النماذج مقصوراً على الصبيان بل تطرق إلى عشاق التاريخ ، فإنها صيغت بحيث تشرح الأزياء والعادات والأخلاق . ويرى المطلع عليها أحوال الأمم وهم فى المصانع يشتغلون ، وفى المنازل يتزاورون ، وعلى الموائد يجلسون ، وفى المحافل والمتنزهات يغدون ويروحون ؛ تعرض بها الأذواق المتباينة فى بناء القصور وتزيينها ، وتنسيق الحدائق وتجويدها ، والسفن وتسليحها ، والقلاع وتحصينها . وقد أفردت لها فى المعارض المشهورة أمكنة لما لها من رائع الأثر فى التربية العامة .

وقد تصدى « ساندو » للعلاج بالحركات البدنية ، يختار منها

ما يلائم المريض بعد تشخيص مرضه . وقد دلّ الإحصاء على نقص فى نسبة الموتى بين أفراد الحيوان الذى يتجشّم الصعوبات ويتسنّم المرتفعات ، حتّى صحّ ما يقولونه : الموت سكون والحياة حركة .

---

١٤) غريزة الطرب من الغناء

الغناء كاللعب معدود من مظاهر الحركة البدنيّة ، يحدث من اهتزاز أوتار الحلق اهتزازاً يخرج الصوت خفيفاً وشديدا ، مرتفعاً ومنخفضاً بحال تعرف بالنغم والتلحين . والناس يتفاوتون فى مبلغ التأثّر به ، ولذلك تجد البارعين فى الغناء يطوفون على ضروب الأنغام ، وينوّعون استعمالها ، ويرجّعونها لعلّها تهزّ الأريحيّة ، وتضرب على الوتر الحسّاس الذى يطرب النفوس .

بهذا يمكننا تعليل نِفار النفس من الصوت الجارى على وتيرة واحدة كصوت البوق وطنين الذباب وعُوَاء الدجاجة ونقيق الضفادع فى الغدران وسَقْسَقَة العصافير على الأغصان . وربّما خالطه رنين موسيقىّ يجعله مصدر ارتياح ، كهزيز الريح وهدير النهر وزقاء الديك وصُداح البلبل وهديل الحمام وسجع القمرىّ وإن لم يكن معناه مفهوما . وما ذا عسى أن يدلّ تغريد الطائر وهو فى أعماق قفصه ؟ أهو يشكو السآمة من وحشة الحبس ؟ أم يسرّى به تباريح الحزن ؟ أم يصدح فرحاً لأنّ العادة أنسته حاله الأولى ، وجعلت له من القفص موطناً مقبولا ؟ قال المعرّىّ :

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ * ـت على فرع غصنها الميّاد

والغناء يؤثّر فى نفس المغنّى أضعاف تأثيره فى نفس السامع، فيلهيه عن طعامه وشرابه وسائر لذاته، نقل المبرّد عن عمر الوادى أنّه قال: «أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى صَرْدٍ[1] من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لأتوصّلنّ إليه ولو بذهاب نفسى، فانحدرت إليه فإذا عبد أسود، فقلت له: أعد علىّ ما سمعت. فقال لى: «والله لو كان عندى قِرَى أقريك ما فعلت، ولكنّى أجعله قِراك، فإنّى ربّما غنّيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربّما غنّيته وأنا كسلان فأنشط، وربّما غنيته وأنا عطشان فأروى. ثمّ انبرى يغنّينى

وكنت إذا ما زرت سعدى بأرضها

أرى الأرض تُطْوَى لى ويدنو بعيدها

إلى آخر ما أنشد. قال عمر: فحفظته عنه ثمّ تغنّيت به على الحال التى وصفها فإذا هو كما ذكر.

تأثير الغناء فى صنوف الانسان والحيوان

إنّ الحيوان كالإنسان يطرب من الغناء، فالقردة والدببة والفيلة والهوامّ تهتزّ عند سماعه هزًّا يدلّ على ارتياح واطمئنان. فقد روى أنّ من أفاعى الهند هامّة كثيرة الفتك بالسكّان يسمّونها الكبرى، تعدّ ضحاياها بالآلاف كلّ سنة، وهى مع شدّة جموحها وعدوانها يذلّلها الغناء. فإذا سمعته وهى فى أعماق أجحارها تخرج متهادية، ثمّ تنصب

(١) المكان المرتفع من الجبال

دَرَقتها نحو المغنّى ، وتهتزّ يمنةً ويسرةً على رنين النغمات ، وتتخدّر فيها أعصاب الحذر فتستسلم للصيّادين . والإبل ـ وهى أغلظ الحيوان أكباداً ـ تضنيها المفاوز ، ولولا حُداء الحادى لتقطّعت ظهورها من ثقل الأحمال ، فى الأسفار الطوال .

وزنوج السودان يتهافتون على صوت الغِناء ، آنين إليه من كل حَدَب ، عاقدين له حفلات الرقص ، رافعين عقيرتهم من شدّة تأثيره فى أمزجتهم .

والطفل الرضيع يَذهمه الحزن ، وتخنُقُه العَبْرة ، ويبرّح به البكاء ، تغنّيه أمّه « نم يا حبيبي بسلام » فيهدأ مضطربُ مزاجه ، وينام آمناً مستريحاً ، ذلك لأنّ نفثات الغناء كالسحر تُشْجيه وتنسيه أحزانه .

والعمّال يطول بهم زمن العناء البدنىّ فيستأنسون بالغناء ويزدادون به قوّة وإقداماً ونشاطا . وقد يلهى الغناء أرباب المهن عن مزاولتها ، قال لصّ عن نفسه : انزبقت ذات ليلة فى ملهى موسيقىّ لأترقّب فرصة السرقة ، ولمّا ارتفع صوت الغناء المشجى غاب صوابى وألهانى الإنصات له عن مزاولة مهنتى ، فخرجت من الملهى مملوء الأذنين ، صفر اليدين .

وللأمم فى فضل الغناء حكايات متداولة ربّما عزاها السامع إلى مبالغة الخيال ، وليس بكثير على لغة العواطف أن تتسيطر على النفوس وتفعل بها فعل السحر . قيل إنّ مدينة هملين Hamelin فى ألمانيا كانت تموج بالفيران من صنوف شتّى ، تعيث فى الأرض وتشارك

obeikandl.com

نحيف الجسم بشُّ الوجه غريب الزيّ وعلى عنقه مزمار ، أقبل وعرض عليهم أن يزيل عنهم هذه الغمّة إذا وعدوه بالمكافأة ، فأطمعوه فى الأجر إذا نجحت حيلته ، ومنّوْه بصداقتهم متى تحقّقت بشارته . فخرج الرجل من فوره إلى الشارع ، وأخذ يعزف بلحن مشجٍ ، فما لبثت الفيران أن خرجت من مخابئها مسحورة لا تلوى إلّا على صوته . وكلّما مرّ بشارع خرجت أسراب فيرانه تتنافس وُثوبًا وقفزاً فى اللحاق به . فسار الرجل ووراءه منها جيش عرمرم إلى أن وصل إلى النهر وهنالك أغرقها .

ذاع هذا الخبر فطار السكّان فرحًا به ، وتبادلوا فيما بينهم عبارات الشكر لله تعالى على تطهير المدينة من أوضار عدوّهم اللدود . ولمّا قضى الرجل مهمّته عاد إليهم مستنجزاً وعدهم ، فوجَمُوا وهَزِئوا بقوله وغَمَطُوا حقّه ، فاستشاط غيظًا وعمد إلى الانتقام ، فخرج مسرعًا وتناول مزماره وأخذ يعزف بتلحين بديع ، فما سمعه إنسان حتّى اقترب منه وسار معه ، فتبعه الأطفال والصبيان والشبّان والشيب والكهول وعلى وجوههم سيمى الفرح والاستبشار ، كما ترى فى الصورة السابقة . فما عتّم أن جاوز بهم حدود المدينة ، وتغلغل فى مجاهل قاحله ، وفرّ منهم كأنّما ركب جناحَىْ نعامة ، وتركهم فتاهوا ، وانقطعت عن أهلهم أخبارهم . فقدّر كيف تكون براعة هذا الرجل فى التأثير بالغناء الذى تصبو إليه على السواء نفس الحيوان والإنسان .

وإذا انتقلنا إلى أسمى مراتب الإنسان ، وتفقدنا الفلاسفة وقادة الأفكار وتحرّينا ميولهم وجدناها تصبو إلى الغناء بدرجة ليس وراءها مزيد . أثر عن معاوية أنّه رافق عمرو بن العاص ، وتوجّها إلى عبد الله بن جعفر ليعيبا عليه جلوسه فى مجلس الغناء . وعندما أنصت معاوية إلى تلحين الغناء سرت فيه نشوة الطرب ، فأخذ يحرّك يديه ورجليه يضرب بها وجه السرير الذى كان جالساً عليه ، فقال له عمرو : اتّئد يا أمير المؤمنين ، فإنّ الذى جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقلّ حركة . فقال له معاوية : اسكت لا أبالك فإنّ كلّ كريم طروب . وكذلك حضر الرشيد محفل غناء فسمع ابراهيم بن المهدىّ يغنّى بأبيات لمروان بن أبى حفصة :

طرقتك زائرة فحىّ خيالها زهراء تخلط بالجمال دلالها
هل تطمسون من السماء نجومها بأكفّكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربّكم جبريل بلّغها النبىّ فقالها

فطرب الرشيد حتّى صار من شدّة نشوته يقوم ويقعد.

وعلى الجملة فالناس بطبيعتهم يطربون بالغناء لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ، حضريّهم وبدويّهم ، عالمهم وجاهلهم ، وربّما كانت نفوس المفكّرين أشوق لسماعه ، وأشدّ تعطّشاً لإيقاعه ، لاحتياجهم إلى ما يسرّى عنهم الهموم ، ويذهب عنهم عناء التفكير . وماذا عسى أن نقول فى الغناء وهو التيّار الروحانىّ ينبعث فيصيب القلوب ، ويملك

قيادها قسرا ، ويستخفّ بالجسم ، فتثور الأعضاء ، ويضطرب الجنان ويهتف اللسان، ويهلّل ويكبّر، ويستعيد ويستزيد. وهذه الانفعالات نتيجة انبساط الأعضاء وسريان الدم فيها سريانا يزيد حركة النفَس زيادة مقبولة كما حققته تجارب الحكماء . وبهذه الزيادة يكون انتعاش الجسم وانشراح الصدر . قال حكيم يوما لتلميذه وقد عزفت الموسيقى: أفهمت ؟ قال : نعم . قال له : بل لم تفهم ، لأنى لا أرى فيك سرور الفهم . وقد استعان به الأطبّاء لمعالجة الأمراض العصبيّة ، واستعان به النفسيّون لتذليل الخواطر الأبيّة . فإذا كان هذا هو حال الغناء وحده ، فما ظنّك به إذا شارك الشعر وامتزج به ؟ وللشعر كالغناء ترنيم وتنسيق وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب ، واجتماعهما معا يوقظ التدبّر والتفكّر لتقدير المعانى التى يحويها الشعر فى أغراض الغزل والحماسة والفخر والتسلية والشوق والزهد والرثاء والأسف والمدح والوصف .

ما أحلى وقع الغناء على النفس إذا لحّن المغنّى هذه الأبيات :

وأقسم ما أدنيت كفّى لريبة ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلّنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعلم أنّى لم تصبنى مصيبة من الدهر إلّا قد أصابت فتى قبلى

نبذة فى تاريخ الغناء

ولو نقّبت عن تاريخ الغناء وما له من الأثر السامى فى إحياء العواطف ما وجدت أمّة خاضت غمار الحياة السعيدة بدونه . وإذا كانت متاعب الحياة تفلّ عزم النفس فإنّ سرور الغناء يشحذها ويعيد إليها حدّتها الأولى. به كانت ملوك الفرس تلهّى المحزون وتعلّل المريض

وتشغله عن التفكير فى مصائبه . وقديماً أبدع الإغريق فى صناعته أيّما إبداع ، وتوسّلوا به فى قضاء الحوائج ، حتّى كان إذا دجا ليل الفتنة استدعوا زعماءها إلى حفلة الغناء ، وأسمعوهم النصائح بلسان الغناء والموسيقى فيُلين طباعهم ، ويكبح جماحهم . وكذلك عوّل عليه العرب فى مهامّ أمورهم ، فكانوا إذا استصرخوا للحرب خرج نساؤهم مغنّيات ، يستنهضن الرجال للذود عن الحريم والوطن ، فينسى الجندىّ نفسه عند سماع نبراته ، ويحمل على العدوّ معرّضاً حياته للخطر ، والحياة أعزّ شىء للإنسان

إذا ترنم شادٍ للجبان به لاقى المنايا بلاخوف ولا فَرَق

ناهيك بالعصر العباسىّ الذى ازدهى بجمال الشعر ورائع الغناء ، فاحتفى به الخلفاء ، وأسدوا الجوائز إلى المجيدين فيه ، صبت إليه نفوس العامّة والخاصّة بعد أن هدأت الخواطر من أنباء الغزو ، وبعد أن شبعت من ثمار الفتح ، وورفت عليها ظلال الحضارة ، فاتّخذت من لسانه ترجماناً يعرب عن أغراضها . كان العباس بن الأحنف ينظم الشعر الرصين ، وكان أبو إسحق إبرهيم الموصلىّ يغنّيه فى حضرة الرشيد فينصت إليه ، ويقبل عليه ، ويهتدى بهديه . وكان الغناء إذ ذاك مفزع الأمّة تلجأ إليه عند الحادث الجلل لتثير به سَوْرة الغضب استعداداً للمهاجمة . ولمّا هموا بالوقيعة بين الرشيد والبراكة أسمعوه بلسان قينة قول عمر بن أبى ربيعة :—

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا ممّا نجد

واستبدّت مرّة واحـدة إنّما العاجز من لا يستبد

فانحرف الرشيد عنهـم كأن لم يكن بينه وبينهم ولاء ، ولم يقبل فيهم قول شفيع ، وزجّ بهم إلى أعماق السجون

وكما خُيّل إلى « ترتيني » أنّه سمع غناء الشيطان فى الحلم بما قصصته فى باب الخيال ، خُيّل إلى أبى إسحق الموصلىّ أنّه سمع غناء الشيطان فى اليقظة ، ذلك أنّه خرج فى ليلة ممطرة يتحسّس عن مغنّ يشاركه فى إحياء حَفلة ، فقابله ضرير استدعاه إلى منزله ، ثمّ شرع أبو إسحق يغنّى معجبًا بصوته فاستخفّ به الضرير ، وقال له : لقـد قاربت أن تكون مغنّيا ، وتناول العود فجسّه ، وضرب على أوتاره فى نغمة ليس لأبى إسحق عهد بسماعها ، فدهش ممّا سمع ، ولمّا خرج الأعمى ودّعه أبو إسحق فإذا هو قد غاب ، ولم يدر أفى السماء صَعِد ، أم فى الأرض هبط ، فخُيّل إلى أبى إسحق أنّ هذا الضرير شيطان تنكّر له فى هذه الصورة لينزله من عالى غلوائه .

وربّما اشترك المغنّون والعازفون ، واستعملوا من آلات العزف البَرْبَط (١) والمِزْهَر (٢) والقانون والقيثارة (٣) والرقّ والناى ، فيخرج من صوتها مزيج ذو نبرات بديعة تفعل فى النفس فعل السحر الحلال . ولم يكن الغناء مقصورًا على مجالس اللهو ، بل اتّسع له المجال كذلك فى مجالس العبادة منذ زمن داود عليه السلام . ومنـه استعير نوع من الترتيل فى المساجد والكنائس ، وتصدّى له قرّاء القرآن بالإجادة ،

(١) العود (٢) العود كذلك (٣) الكمنجه

فاجتذبوا به المسامع ، وشنّفوها بحِكَمِهِ وأحكامه ، وقد ورد « زيّنوا القرآن بأصواتكم »

الغناء فى المدارس

كان الإغريق أشدّ الأُمم اعتداداً بالغناء واهتماماً به فى المدارس، مرّنوا عليه الأطفال منذ الصغر ، فعوّدوهم النفخ فى الناى والضرب على الأوتار . وكان فروبل يتنزّل إلى مستوى الصبيان ليتعرّف ميولهم وما يتشوّفون إليه . مرّ يوماً بامرأة على إحدى ذراعيها غلام ، ورآها تتقدّم به إلى دجاجة ، وظلّت تحاكى قَوْقاءها ، وتحرّك أصابعها لتدعوها إليه ، فما عنّ الطفل أن حاكاها بأصابعه وصوته ، فكان لهذا المشهد تأثير رائع فى نفس فروبل حبّب إليه نظم النشيد ، فألف منه ما سمّاه « دعوة الدجاج » ، وهكذا ظلّ يترقّب الفرص ، وينظم الأشعار الرصينة الجزلة ، فى المغازى الرقيقة البديعة . فإذا تاق الطفل إلى صنع طيّارة مثلا ، فقد حان الوقت لسماع النشيد الملحّن فى هذا المعنى . وإذا توجّهت نفسه إلى مداعبة القطّ أو إلى الإعجاب بالحمام وقد بهره بهاء ريشه وخفّة حركاته ورائع غنائه ، فقد استمدّ للإنصات لنشيد يجمع هذه الأغراض ، وحينئذ تطمح نفسه إلى ترتيل النشيد فى وقت تتوق فيه إلى التهذيب والتثقيف .

يجمل بنا أن نحبّب إلى الأطفال ترتيل الأناشيد فى أثناء اللعب ، فإنّ اجتماعهما معاً ينشّط الجسم ، وينعش الروح ، ويبرز الشعر فى أجمل حلّة ، ويقوّم فيهم آلة النطق ، ويذهب عنهم سآمة القراءة المجرّدة من رخامة الصوت . نريد أن ندخل تدريس الغناء فى مناهج

مدارسنا لنعيد ما درس من صناعة أسلافنا ، ولنستخدم قوّته الروحانيّة فى تذليل مصاعب الحياة ، فإنّ نفوسنا كثيرًا ما تعروها السآمة فتحتاج إلى ما ينبّهها . ونحن إذا أدركنا هذه الغاية فقد حقّ لنا أن نجرّد سيف عزيمتنا لمحاربة الوصمة التى دهمت الغناء ، فقد تناوله أهل البطالة ، واتّخذوه ذريعة لرواج الخلاعة والمجون والهزل وسخيف النطق ، فشوّهوا اللغة العربية واستعاضوا عن ألفاظها الشريفة تراكيب أجنبية لا ضرورة لها . ولا سبيل لتعويد المسامع ما نرغب فيه من رواج الألفاظ الفذّة والتراكيب الجزلة إلّا بجوده الترتيل وحسن الغناء . فليمدّ الأدباء والمغنّون أيديهم للأخذ بناصرها ، فالآمال معقودة بمساعدتهم .

وقد تحرّكت فى النفوس رغبة صادقة فى الإقبال على الغناء والضرب على آلات الطرب ، ويبشّرنا أنّه تولّدت بمصر نهضتان : نهضة هواة الفنّ لتشييد أندية الموسيقى ، وفيها تحيا الأغانى وتتجدّد أنغامها بما يبتكره البارعون ؛ ونهضة طلبة المدارس الثانويّة ، ومظهرها ما يتجلّى من براعتهم الموسيقيّة فى حفلاتهم السنويّة .

أمّا طريقة تعليم الغناء والضرب على آلات الطرب عندنا الآن فلا تخرج عن نوع الطريقة الساذجة التى تتعلّم بها الاميّون لغاتهم ، وجلّ الاعتماد فى تلقينها على السماع والممارسة والمحاكاة ، ويظهر السبق لمن ركزت عنده ملكة الفنّ وصحّت لديه قوّة التقليد . أمّا من لم يوهب

تلك القوّة وقد صحّت عنده العزيمة على تعلّم الغناء فلا يجد من يأخذ بيده ويسير به على التدريج من المقاطع إلى الأدوار ، وأين يجد المدوّنات لنماذج الأصوات الجميلة التى كان المجيدون يتغنّون بها ؟

قد يرجع الإنسان إلى أسطوانات الحاكى ، وقد يرجع إلى أهل الفنّ فيسمع منهم النغمات ، ولكن إذا اختلّت الأسطوانات أو مات حفّاظ الأصوات أو ضعفت ذاكرتهم ضاعت الثقة بما احتفظوا به من أدوار الغناء وطرق أدائها وكانت عرضة للضياع أو للتشويه والمسخ ، كما ضاع كثير من أدبيّات الأعصر الخالية .

إنّ الغناء لغة العواطف ولكلّ أمّة فيه لسان خاصّ ، وهذا هو السبب فى أنّ الشرقيّين لا يطربون من غناء الغربيّين ولا يطرب الغربيّون من غناء الشرقيّين ، فاقتباس أحدهما من الآخر لا يجدى ، اللهمّ إلّا أن يكون اقتباس طرق التدوين الموسيقىّ وطرق التعليم الغنائىّ ، وما عهدنا لغة رقيت وأهلها أُمّيّون . فعلى أهل الرأى والغيورين وهُواة الفنّ أن يتضافروا على إبراز طريقة تكفل لمن يتوخّاها تسهيل تعلم الغناء ، فإذا نجحوا — ونأمل أن يكون ذلك قريباً — فالرجاء كبير فى اعتبار هذه الحركة المباركة أساساً لإدخال الغناء والموسيقى فى منهج المدارس .

١٥) غريزة الادخار

تتجلّى هذه الغريزة فى صنفين من الحيوان وهما : النحل والنمل ؛ فالنحل يصنع خلاياه من الشمع ويدّخر فيها العسل مما يقطفه من رحيق الأزهار ، ليغذّى نسله وليتغذّى به عند الحاجة ؛ والنمل يبنى قريته فى جذوع الأشجار وفى الجدران وفى باطن الأرض ، ويتّخذ فيها غرفاً يدّخر فى بعضها قوته ويحفظ فى بعضها نوعاً من الحشرات التى تفرز اللبن لغذائه .

ولو تأمّلت النمل لوجدته كالنحل فى شغل شاغل ، تخرج النملة من قريتها ، وإذا عثرت فى طريقها على حبّة خفيفة حملتها أو جرّتها ، وإلاّ رجعت لتدعو شركاءها ، وكلّما مرّت بنملة لمستها بزُبانَيْها تستحثّها على المساعدة ، وبهذا يتضافر النمل جميعاً على العمل . حاملاً ما قدر عليه من أصناف الغذاء إلى قريته حيث ترتّبه الأمّهات ، ويجزّئنه متى خفن الإنبات . ويستمرُّ النمل كادًّا على هذا المنوال طول الصيف

وقد شاهد چيمس هذه الغريزة ظاهرة الأثر فى كلب صيد ولد فى أرض إصطبل ونقل صغيرًا إلى منزل فرشت أرضه بالطنافس ، رآه يحاول نبش الأرض ليخفى قُفّازًا أمسكه بفمه ، وما زال بالبساط حتّى خدشه وأخفى به القفّاز ، فعل هذا أربع مرّات ثمّ انقطع عن فعله لأنّه لم يجد مجالاً لتمرين هذه الغريزة . فلو كان ما فى فمه قطعة لحم

مثلاً بدل هـذا القفّاز ، وكانت الأرض صالحة للنبش لاستطاع أن يدّخر ما زاد على قوته ليركن إليه عند الحاجة .

هـذه الغريزة مُؤَقتَة تظهر إلى سنّ محـدودة فى الحيوان وفى الإنسان ، وفى غضون هذا الزمن تذبل أو تنمو إذا أُهملت أو روعيت

نجد الطفل إذا أُعطِى مأكولاً تناول منـه ما استطاع ، وأبقى فى يده ما زاد عليه ، وربّما أودعه مكاناً وأخفاه عن الأعين . كذلك نراه يجمع فى « الحصّالة » فضلة ماله ، حتّى إذا غصّت بالنقود كسرها وعَبث بما فيها ، والطفل محتاج دائماً إلى من ينبّهه على وجوه الصرف الحقيقيّة . وما ظنُّك بالآباء الذين يكتفون بجمع المـال لأبنائهـم ويهملونهـم من تمرين ملـكة الادّخار ؟ ما ظنُّك بهـم وقد انقضت آجالهم وتركوا هذا المـال للورثة الذين لا يحسنون رقابته ولا يعرفون طرق تثميره ؟ إنّهـم وقد فعلوا ذلك قـد أخطئوا السبيل الموصّلة إلى صيانة أموالهم وبقاء ذرّيّتهم على النهج الذى يأمُلونه ، لأنّ الأموال لا يصونهـا إلّا أناسٌ خـبروا ألوان المشقّة فى جمعها ومرّنوا أنفسهم على تثميرها .

يقول الفتى ثمّرت مالى وإنّما ... لوارثه ما ثمّر المـال كاسـبه
يحاسب فيـه نفسه فى حياته ... ويتركه نهباً لمن لا يحاسبه

فالمـال — وهو أخو الروح ، وأجر للجهود المضنية ، ووسيطُ نيل الحاجات ، وسِتْرُ من لا تسمو به الخصال ، ولسان فصيح المقال ، وسـلاحٌ فى ميدان الـكفاح والنضال — قد أصبح الشغل الشاغل

للإنسان مهما كان شأنه فى الحياة ، فالساذج يدّخر المال ويودعه الحفيرة ويخفيها عن الرقباء ، والبخيل يودع ماله الخزائن أو للمصارف حارماً نفسه لذّة الانتفاع منه ، والمقتصد المدبّر يدّخر ماله تدريجاً ، فيشترى الساعة وينقد ثمنها نجوماً يدّخرها من إيراده ، فيستفيد بذلك فائدة مضاعفة ، وربُّ الأسرة يتحرّى مواسم الحصاد ، فيشترى من الغذاء كفايته طول عامه ، فيستفيد قربها من متناوله ورُخْصَ ثمنها وأمْنَ غائلة الأزمات ، وكم عادت عوادبها فى أيّام المحن .

وضروب الاحتيال لنيل أسباب الادّخار وفيرة . ومع أنّنا نعلم أنّ منزلة الإنسان في قومه ، وكرامتَه بين نظرائه يحتّمان عليه أحياناً الخروج بالنفقة عن حدود الطاقة ، فلا نزال نقرّر أنّ من مقتضيات الادّخار أن يجعل مصروفه أقلّ من دخله ، وأن يفكّر دائماً فى تدبير شئون الحياة . والمدبّرات من النساء لا يشترين كلّ زىّ جديد ، لأنّ هذا يستنزف أموالاً طائلة ، ولكنّهنّ يتحيّلن ويدخلن على ملبسهنّ القديم من التعديل ما يجعله ذا مَسْحَة جديدة ، وإذا بلى منه جانب رفونه أو ألصقن به بعض الزخرف ، يسترن عيبه عن أعين الناقدات ، وإذا أعياهنّ الأمر اتّخذن منه ملابس للأطفال.

وقد حكمت علينا العادات القوميّة أن نكون أسبق الأمم فى الإسراف والتبذير ، فلذلك لجأت الحكومة إلى إنشاء صناديق الادّخار ، وسهّلت طرق الوصول إليها ، واستصدرت من مفتى الديار المصريّة المرحوم الشيخ محمد عبده فتوى بحلّ استعمالها فأقبلت عليها

الأُمة ، وزاد الادّخار على مدى الأيّام نموّا ، فأُدخل فى المدارس ، ونشّط الإقبال عليه بضروب المنافسة . بيد أنّ طبيعة الطفل نَزّاعَةٌ إلى اللهو ، وإلى إدراك ثمرة أعماله على الفور ، فيعوقه هذا عن موالاة الادّخار ، ويعترضه الفتور وهو فى سبيل السعى ، لذلك كان حقًّا على المشرفين على الأطفال أن يزيدوهم حثًّا وتشجيعا ، ويزوّدوهم بالأمثلة من طريق القدوة الصالحة ، ويستكتبوهم الموضوعات فى ثمرات الادّخار . وإنّك لو حادثت الطفل عن مكنون ضميره لأظهر لك أن نقوده التى يودعها صندوق الادّخار طائعاً مختاراً هى محبوسة عنه وهو محروم منها ، إذ لا يستطيع ردّها من مصلحة البريد إلّا بإذن ناظر مدرسته وهيهات أن يأذن له . وما لم ير التلاميذ أنفسَهم فى حلّ من استرداد أموالهم والانتفاع بها لا تجد فيهم الإقدام الإرادىّ ، ولا يعتادون الادّخار وهم فى مقتبل العمر .

أمّا وجه الفائدة من الادّخار فإنّها قد تكون شخصيّة محضة ، لأنّ المدّخر يستفيد ممّا يدّخره ما ربّما يتساهل فى إنفاقه لولا الادّخار ، والموظّف يستفيد من ادّخار جزء من راتبه يضمن معاشه عند اعتزاله العمل .

وقد تكون الفائدة اجتماعيّة لمؤاساة الفقراء ابتغاء الأجر الذى وعد الله به عباده المحسنين . وقد تكون ضاربة فى هذه الأغراض بسهم ، كما يرى فى شركات التأمين على العقار وعلى الحياة إزاء مبلغ يدفعه الأعضاء كلّ سنة ، وكما يرى فى شركات التعاون المنزلىّ التى

تبيع المواد المنزلية لأعضائها بثمن قليل الربح ، وكما يرى فى شركات التعاون المالى التى تجمع الأموال من أعضائها ، وتعطيه من يكون منهم أقدر على العمل ليثمره ؛ وكما يرى فى النقابات الزراعية التى تتعهد شراء الآلات والدواب والبذور والسماد وتبيعها للفلاح بربح زهيد ، أو تتقاضى ثمنها مما تخرجه الأرض من الغلات ، وكما يرى فى نقابات العمال وبها تسمى طوائفهم لرأب صدعها ولم شعثها ، ويد الله على الجماعة